وصفة جديدة للرز بالشعرية

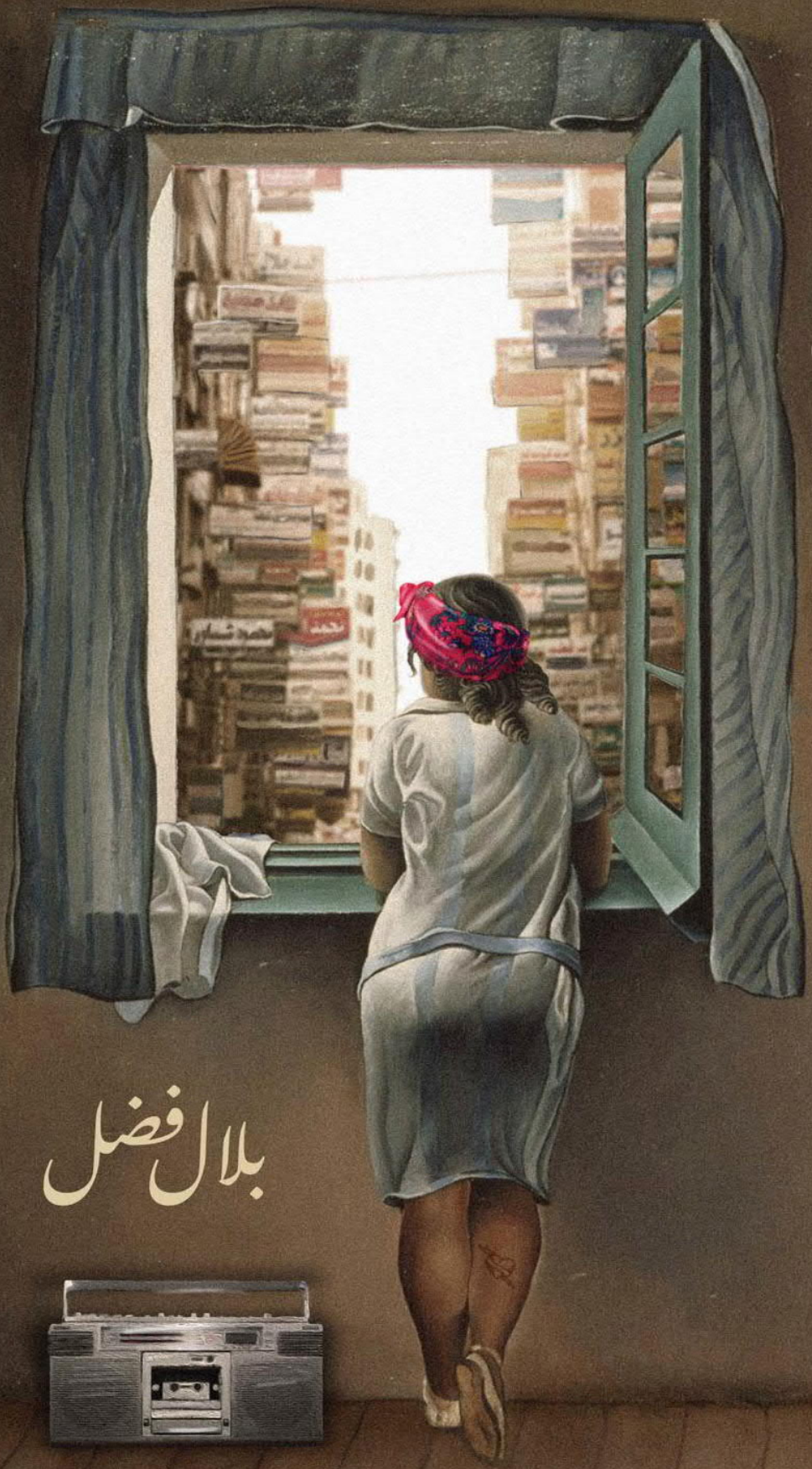

ساحر الكتب

بلال فضل

إهداء

إلى الصديق الأعزّ أحمد شلباية

إله الجدعنة عند قدماء المصريين

وصفة جديدة للرز بالشعرية

مع أن المصورين ليسوا كالحلاقين، يعني، لا ضَير من تغييرهم من حين لآخر، لكنني على مدى ربع قرن تقريباً، لم أتعامل مع مصور فوتوغرافي غيره.

لم تكن سمعته الحسنة كمصور بارع سبب معرفتي به، بل صدفة قربه من وزارة التعليم العالي التي كنت يومها «مَلخوماً» في أروقتها، أحاول حل مشكلة تخص أوراقي الجامعية، وحين اكتشفت أنني أضعت صوري الفوتوغرافية التي اصطحبتها من الاسكندرية، حيث يقع مصور العائلة المعتمد، جريت على مَلا وجهي لعمل صور فورية في أقرب مكان متاح. كان التصوير الفوري وقتها اختراعاً طازجاً، مع أنه لم يكن فورياً بالضبط، فقد كان استخراج الصور يستغرق عدة ساعات، لكن عهد استلام الصور الفوتوغرافية بعد أسبوع أو «يومين تلاتة بأمر الله» الذي عشناه طويلاً، كان يوجب علينا التسامح مع عدم دقة تعبير «استلم صورك خلال ساعة».

حين عثرتُ على الاستديو، لم يكن لاستعجالي على الصور معنى، فقد أوشك موعد الدوام الحكومي على الانتهاء، لذلك لم أبحث عن استديو آخر أقل ازدحاماً، بل وقفت منتظراً دوري، ومتفرجاً على المشهد الذي كان قد أوشك على نهايته

حين دخلت، بطلته سيدة ستينية تنضح بالطيبة والإرهاق، تجلس على كرسي منهارة في البكاء، وإلى جوارها يقف شاب في مثل سني، وقد لوى بوزه ضيقاً وإحراجاً، وآخرون ربما كانوا زبائن يهزون رأسهم مؤمّنين، على كلام رجل وقور يجلس خلف مكتب، ويقرّب من السيدة بإلحاحٍ لطيف كوب عنّاب قائلاً: «يا حاجة وفّري دموعك للي يستاهل.. هما يعني اللي كانوا اتخرجوا من الجامعة عملوا إيه بشهاداتهم.. ده أنا عندي ليسانس حقوق ما استنضفتش أعلّقه في الاستديو.. وبعدين مهما كان دي اسمها كلية هندسة.. طب والله العظيم تلاتة النهارده الصبح جت لي أم بتلطم وتكاد تتمنى الموت.. عشان ابنها رِسِي على معهد التعاون بعد ما طفحوا عليه دم قلبهم دروس ومجاميع، وبعدين بالأمانة يا ست الكل هندسة شبين الكوم أرحم من جامعة جنوب الوادي».

لم أحتج إلى المقاطعة للسؤال عن تفاصيل المشكلة، فتكرار اسم هندسة شبين الكوم، جعلني أفهم أن التنسيق رمى الشاب لاوي البوز عليها، وأن محاولة الأم للتظلم لدى الجهات المختصة باءت بالفشل، كان المشهد بأسره يوحي بجو أُسريّ دافئ، يجعلك ممتناً لهؤلاء الأفاضل لقبولهم تطفُّلك على مسألة عائلية. فجأة أوشكت أن أصير طرفاً فعالاً في المشهد، بعد أن لاحظ صاحب الاستديو حماس ملامحي لما يقوله، فسألني: «ولا إيه رأيك يا كابتن؟»، لكن لاوي البوز

هتف في أمه بسخط: «ممكن نتصوّر بقى ونمشي وكفاية فضايح»، ليرد صاحب الاستديو بعتاب ممتزج بالقرف: «فضايح إيه بس، ده الناس لبعضها، هي دي مش زي أمي برضه، عايزني أشوفها مقهورة عياط وأسكت»، وقبل أن نشارك جميعاً في لوم لاوي البوز، ترك لنا الاستديو مندفعاً، لتنهض أمه معتذرة للرجل وداعية له، وهي تسرع في اللحاق بابنها «أحسن يعمل في روحه حاجة»، وبعد خروجهما ساد في الاستديو صمت بايخ، قطعه صاحب الاستديو بتعليق ختامي كان واجباً لاستئاف جدول الأعمال: «حتة بَفتَة بيضا بس مخلِّفة خرية، الله يكون في عونها، الحمد لله إن ربنا تاب علينا من الخلفة ووجع القلب».

كان كوب العنّاب الذي تركته «البفتة البيضا» من نصيبي، شربته على مهلي، وأنا أتأمل براويز الصور المعلقة في المكان، منتظرا نزول من عرفت من نداء البعض له أن اسمه «عم فريد» من الدور الأعلى من الاستديو، والذي كان قد صعد إليه لتصوير الزبون الذي سبقني في الدور، بعد أن أوصاني بأخذ بالي من المكان، وأن أطلب من أي زبون قادم أن ينتظر قليلا لأن «الدنيا مش هتطير»، ولم أكن أعلم أنني سألعب هذا الدور التطوعي مراراً وتكراراً في السنين القادمة، حين بدأت عملي الصحفي بعد ثلاث سنوات، في مجلة تقع على بعد خطوات من محل عم فريد، ثم سكنت لعقدين من

الزمان على بعد «شارعين ثلاثة» منه، لكن لم يكن ذلك وحده، ما جعل كل صوري الفوتوغرافية من عمايل يديه، بل كان حبل الحكي الذي امتد بيننا منذ تلك الضهرية، ولم يقطعه إلا موته.

على مر السنين، لم يتغير في محله الكثير، حتى الكاميرات الأقدم التي يضطر لتغييرها، كان يحتفظ بها في ركن من الدور العلوي، معتزاً بأنه رفض بيع كاميرا قديمة ورثها عن أبيه، «رفضت أبيعها بالشيئ الفلاني»، يكرر العبارة دون أن يذكر رقماً محدداً يخدش بهاءها البلاغي. حين اقتنى شبه آلة لقطع الصور الملتصقة ببعضها، بدلا من قصها المتأني بالمقص بصحبة صوت أم كلثوم، قال ضاحكاً: «معلهش لازم نواكب العصر يا برنس». أما التغيير المنتظم الوحيد في الاستديو، فقد كان يجري في المساحة الخاصة التي تقع على يسار مكتبه، حيث كان يضيف إليها في تاريخ محدد كل سنة بروازاً جديداً، يضع فيه صورة جديدة لـ «الغالية»، زوجته منى، أو مُنية النفس كما كنت أسمعه يناديها ضاحكاً متهللاً، حين يجيب على اتصالاتها الهاتفية المنتظمة.

حين توثقت علاقتنا أكثر، أخبرني أنه قرر ذات يوم أن يضع لها ثلاثة وثلاثين اسماً، وأنه كاد في لحظة طيش أن يكملها تسعة وتسعين اسماً، ثم تراجع خوفاً من أن يحل عليه

غضب الله فيحرمها منه. كثيراً ما ناشدته أن يمليني أسماءها، لعلّي أستخدمها حين أتزوج، وكان يرفض لأن أغلبها مما لا يصح ذكره إلا «بين الراجل ومراته»، ثم إنه لا خير في اسم تنادي به زوجتك وقد استعرته من غيرك.

كنت أتعامل مع كثير مما يقوله بوصفه مبالغات درامية لأديب مقموع، فقد حكي لي أنه كان يحضر عدداً من ندوات (نادي القصة) القريب من الاستديو، وأنه عرض مرة قصصه على أحد مشاهير أدباء النادي، فنصحه بجلافة ألا يعود للكتابة لأن «المشرحة مش ناقصة قتلى»، لكنني برغم ذلك، كنت أصدقه في كل ما يحكيه عن زوجته، ليس فقط لأن صوته كان يتهدج، وقسماته كانت تختلج، كلما تحدث عنها، بل لأن نظرات عينيها إليه، والتي تفيض محبة وولهاً، في كل الصور التي كان يلتقطها لها ليلة عيد ميلادها من كل عام، كانت وحدها مصداقاً لكل ما يحكيه.

كنت أقول لنفسي إن محبته الغامرة لها، ربما كان وراءها قدر من الامتنان لأنها لم تتركه، حين ثبت أنه لا ينجب، حتى أنها خاصمت في ذلك أهلها لسنين، قبل أن تثبت الأيام أن أخواتها اللواتي اخترن «عِزوة الخلفة» لم يكن حظهن سعيداً مثلها، لكنه كان كلما حكى لي عنها يضيف أسباباً لمحبتها، مؤكداً في كل مرة أنه ليس كل ما يُعاش يُقال. وأسباب

المحبة التي كان يسوقها في حكيه، سمعت بعضها من آخرين أحبوا زوجاتهم، وعشت بعضها لحسن الحظ، لكن السبب الذي تفرّد به عم فريد، هو أن منية النفس كانت وحدها من بين النساء، تجيد ست وصفات مختلفة لعمل الرز بالشعرية.

قلت له ضاحكاً إن الرز بالشعرية له وصفة وحيدة، هي أن تضع الشعرية على الرز فوق النار، وأن تغيير السمن بالزيت خلال طبخ الرز بالشعرية، ليس وصفة جديدة، بل طريقة طبخ مختلفة، وأننا لو فرضنا أنها أضافت إلى الطبق بعض الزبيب والمكسرات، لأصبح طبقاً مختلفاً تماماً، اسمه (رز بالشعرية والزبيب والمكسرات)، فلم يرد وتجاهلني كأنه عارف بالله يسمع هرطقة مُجدِّف حديث العهد، وحين كرّر موضوع وصفات الرز بالشعرية بعد فترة، قلت له جارّاً شَكَله إن الحب أدخله في حالة فانتازية دائمة كالتي خاضها مجانين الحب القدامى، فقال متغاضباً إنني قضمت للتو التفاحة التي حرمتني من دخول جنته، وأنه كان يفكر في أن يطلب من منية النفس دعوتي لوليمة مخصوصة، تقدم فيها كل وصفات الرز بالشعرية دفعة واحدة ليطمئن قلبي، لكنه لغى الفكرة بعد ما قلته، ومع أنني كابرت واتهمته بالتهرب من إثبات مما يدعيه، إلا أنني اغتظت لأن نزقي حرمني من فرصة ربما كانت حقيقية، لرؤية عش الحب الذي يجمع وليفين نادرين مثلهما.

لم تكن «مُنية النفس» أجمل النساء بمقاييس الجمال السائدة في واجهات استديوهات التصوير، والتي يعتبرها أصحاب الاستديوهات وسيلة مضمونة لـ «جرّ رِجل» الزبائن، كان عم فريد يرى في هذا التصرف غباءاً منقطع النظير، لأن المصوراتي يرفع به سقف توقعات زبونه، ويورِّط نفسه في مهمة لا يقدر عليها إلا الله وعباده المصطفون من أطباء التجميل، مهمة تحويل الفسيخ إلى شربات. يشير عم فريد شارحاً فلسفته إلى صور جدران محله: «آديك شايف كلها صور حلوة، مش عشان البني آدمين اللي فيها حلوين، عشان أنا عملت فيها شغل حلو، هو أنا اللي خلقت البشر عشان أقعد أديهم درجات في الحلاوة، الحلو أصّدره في الفاترينة، والمضروب أداريه، طب لازمتي إيه ساعتها»، ستفهم فلسفته أكثر حين أقول لك أن الفنان الوحيد الذي «بَرْوَزَ» صورته في صدارة المحل كان الممثل السكندري محمد شرف، بعد أن اشتهر في دور سامبو في مسلسل (أرابيسك) الناجح، وحين قلت ممازحاً إن ذلك حدث، لأن محمد شرف كان الفنان الوحيد الذي دخل الاستديو أصلاً، غضب بشدة، وكانت زعلة كبيرة، لأنه استغرب أنني قضيت بصحبته كل هذا الوقت دون أن أفهمه صح، وفي ساعات صفا تالية أراني عدداً من الصور التي يحتفظ بها لكثير من النجوم الكبار، ومع ذلك لم يختر بروزة صورهم كما فعل بصورة محمد شرف، لأنه دخل

قلبه منذ أن رآه، والقلب له أحكام.

حين عصف فيلم (اضحك الصورة تطلع حلوة) بمشاعر مصوراتية مصر، كان عم فريد الوحيد الذي لم يعجبه الفيلم، برغم تقديره لتمثيل بطله أحمد زكي، حيث لم تدخل في دماغه حكاية أن «مصور استديو قد الدنيا» يمكن أن يسمح لأي شيئ مهما كان بأن يجعله يسرح في الشارع، «وفيها إيه يعني لو كان دخّل بنته كلية طب الزقازيق وقعد بكرامته في محله».

ضحكنا كثيراً حين ذكّرته بالشاب لاوي البوز بسبب نتيجة التنسيق، والذي كان سببا في توثق معرفتنا، لكنه أضاف أنه لم تعجبه فكرة التودد الزائد الذي كان سيد بطل الفيلم يظهره للزبائن حين يقوم بتصويرهم لكي تطلع صورهم أحلى، «إنت كزبون مش عيِّل عشان أداديك وأخليك تبص على العدسة، كبيري أشاور لك تبص فين، أو أقولك تعدل رقبتك أو ترفع راسك، أنا مش مغسِّل وضامن جنة، حاسبني لو صورتك غلط، إنما ما تقوليش أصل شكلي ما عجبنيش، الصورة دي بتلقط شخصيتك، لو شخصيتك وسخة، أكيد هتطلع في الصور شخصية وسخة، بس المهم إنها تبقى صورة معمولة صح»، ليقنعني عم فريد يومها بنظرية لا زلت أتبناها حتى الآن، وهي أن الصورة تشبه حقيقة صاحبها

دائماً، لأن المصورين لا يظلمون أحداً، لكن الزبائن أنفسهم يظلمون.

مع الوقت ومشاغل الدنيا، تباعدت زياراتي له، وكان بعضها بصحبة أصدقاء لا يصدقون ما كنت أحكيه عنه حتى يروه ويسمعوا حكاويه، وكان أكثرهم انسجاماً معه صديق طلّق ثلاث مرات، وكان يزوره من حين لآخر ليأخذ منه نصائح لاختيار الزوجة الرابعة التي كان يتمنى أن تكون «تابتة»، وحين أحضر له الصديق صور إحدى المرشحات لزواجه المرتقب، سمع محاضرة من عم فريد في دلائل «حموريّة» المصور الذي التقط لها الصورة، ختمها بأنه لا يستطيع أن يظلم إنسانة قد تكون بنت حلال، لمجرد أن من صوّرها أعمى النظر.

ذهب أحد أصدقائي من العاملين في إعداد البرامج إليه مرّة، وطلب أن يصور عنه وعن زوجته تقريراً تلفزيونياً، فطرده عم فريد من الاستديو، واتصل بي طالباً مني ألا أحضر إليه الأغبياء من أصدقائي، لأنه «ليس فُرجة»، وأنه لو كان يريد أن ينشر حكايته في (الأهرام) أيام عِزّها لفعل، وأنه رفض عرضاً من المذيعة سامية الأتربي بجلالة قدرها للظهور معه في برنامجها الشهير (حكاوي القهاوي)، ولم يهدأ غضبه إلا حين أقسمت أنني حذرت صديقي مما فكّر فيه،

وهو ما جعله يذهب إليه منفرداً، ولكي أراضيه ذهبت إليه ومعي كتاب يضم عدداً من أهم صور القرن العشرين، كنت قد اشتريته «بالشيئ الفلاني» من بيروت، ومع أنه أظهر فرحه بالهدية، إلا أنه بدا لي متغيراً، وكأنه يعاني من هم ما، ولأول وهلة فكرت أنه ربما كان على خلاف مع زوجته، وأن هذه ستكون سابقة تستحق أن أسمع تفاصيلها، لأتأكد أن «لكل شيئ إذا ما تم نقصانُ»، وليت ما ظننته كان صحيحاً، فقد كان بالفعل متغيراً، لأنه كان منذ فترة يشيل هم علاج مُنية نفسه التي داهمها المرض الخبيث فجأة، وتسبب في استئصال أحد ثدييها، لتدخل بعدها في حالة اكتئاب عنيفة، جعلته يدوخ على الدكاترة النفسيين الذين كان يحسب أن الله لم يخلقهم لمثله أبداً، قبل أن تنتقل دوخته مجدداً إلى دكاترة الأورام، بعد أن ظن أنه لن يعود إليهم من جديد.

أكثر ما آلمه أنه كان يسمعها تدعو الله في سجودها وعقب صلاتها، أن يعجل لها بالموت، لكي لا تبهدله معها «أكتر من كده»، وكانت تلك المرة الوحيدة التي رأيته يبكي فيها منذ عرفته، قال إنه أصبح يترك الاستديو كثيراً لابن عمه، لكي يلازمها خوفاً من أن «تعمل في نفسها حاجة»، وأنه فوجئ بها ذات يوم تبكي بحرقة رهيبة، وبعد أن بذل محاولات مضنية لفهم سبب بكائها، اكتشف أنها تبكي لأنه نسي أن ذلك اليوم كان عيد ميلادها، وأنها كانت المرة الأولى التي يفوّت

فيها موعد تصويرها، قالت له باكية إنها تعرف أن الكيماوي بهدل شعرها وعَدَمها العافية، لكنها لم تكن تتوقع منه أن يبدل عادتهما مهما جرى، ومنذ تلك اللحظة دخلت في حالة صمت مطبق، لا تقطعها إلا حين تسجد بين يدي الله.

بعدها بأسبوعين، وجدت هاتفه خارج الخدمة، وحين ذهبت إلى الاستديو وجدته مغلقاً، فتوقعت ما حدث لمنية النفس. حين ذهبت إلى العزاء كان يقف منطفئاً، حاول أن ينتزع ابتسامة ود حين رآني، فسارعت باحتضانه لكيلا يرى وجهي المتأهب للبكاء، وبعد قليل صعدوا به إلى شقته، بعد أن خارت قواه في العزاء. ظللت أطمئن عليه من ابن عمه، وحين عاد إلى الاستديو بعد شهر، واستقر على مكتبه إلى جوار صورها، كان واضحاً أنه لم يعد ولن يعود، وبعد أن شغلتني عنه سفريّات متعاقبة، زرته فوجدته متماسكاً إلى حد ما، كان نازلاً لتوه مع زبون من أعلى الاستديو، يحكي له عن كاميراته القديمة، وبعد السلامات والتحيات والعنّاب، لمح نظرة مرتبكة مني إلى صورها، فنظر لي مبتسماً، وبعد صمت قصير، كتم رغبته في البكاء بضحكة عصبية، وقال: «تصور إن ولاد الكلب بيقولوا لي أتجوز، عارف قلت لهم إيه، قلت لهم ماشي، بس لما ألاقي الأول واحدة عندها وصفة جديدة لانج للرز بالشعرية».

بمقتضى وظيفته

كانت العملية المرتقبة سهلة، لكنها كانت مُحرِجة بسبب موقعها، ولذلك كنت حين أخبر صديقاً أو قريباً بأنني سأجري عملية لإزالة خُرّاج، تحول إلى مشكلة بسبب مضاعفات مرض السكر، أخبره أن مكان الخُرّاج في أعلى الفخذ، لأنه ليس من الضروري يعني أن يعرف أن مكانه الحقيقي أسفل الخصية، خاصة أن مجرد نطق كلمة الخصية يثير لدى أبناء جِلدتنا رغبة غير مفهومة في الضحك الهستيري، حتى وإن ارتبط ذكرها بالمرض.

كان طبيبي المعالج قد اختار مستشفى القصر العيني الفرنساوي لإجراء العملية، برغم مخاوفي المتكررة من الإهمال السائد في المستشفيات الحكومية الذي قد يؤدي لعدوى غير مرغوب فيها، ومع أنه كان حريصاً وهو يحيلني إلى المستشفى أن يرد على كافة أسئلتي ويخبرني بمعلومات تفصيلية عن المستشفى التي يجري فيها كل عملياته، لأنه لاحظ ذعري الشديد ما إن سمعت كلمة الجراحة، إلا أنه لم يخبرني بموضوع الحلاقة الذي سأتعرض له قبل العملية، ولذلك احتجت إلى الاتصال به بعد أن دخل ذلك الرجل الدمث المبتسم غرفتي دون ميعاد مسبق، قائلاً لي إنه حلاق المستشفى، ثم طلب مني أن أنزع ملاءة السرير لكي يقوم

بتجهيزي للعملية، ولأنه بدا واثقاً للغاية من نفسه، كان من الحكمة أن أؤجل طرده إلى ما بعد الاتصال بالطبيب.

قال لي طبيبي مطمئِناً إن العملية صحيح ستُجرى تحت تأثير مخدر يشل إحساسي بالنصف الأسفل من جسدي، ومع ذلك فإن إزالة الشعر في المنطقة المحيطة بالعملية، إجراء متبع وروتيني ولا داعي للقلق منه، وأنا في الحقيقة لم أكن قلقاً، بل كنت محرجاً أو إذا شئت الدقة «مبضوناً»، ولذلك كنت أريد أن أنتهي من كل هذا القرف في أسرع وقت ممكن.

كان لدى الحلاق الذي شارف على الستين من الخبرة الكافية ما يجعله يدرك ما أنا فيه من حرج وضيق، ليقول لي ملاطفاً ومهوناً مما أنا فيه، إن علي أن أتعامل مع الموضوع بوصفي عريساً يستعد لتجهيز نفسه قبل الدخلة، قبل أن يدرك أن تعليقه ربما كان غير مناسب تماماً لوصف الوضع الراهن، فيقرر ببراعة تغيير الموضوع وتسليتي بالحكي عن نفسه وعن مهنته التي لم أكن قد تصورت وجود مثلها.

كنت قد أغمضت عيني للحظات، فور أن خلعت ملابسي واستسلمت لمصيري، ثم رأيت أنه ليس من الحكمة أن أُسلِم نصفي الأسفل لأحد وأنا مغمض العينين، حتى لو كان حلاق مستشفى في الستين من عمره، لذلك «فنجلتُ» عينيّ وأنا أراقبه يقوم بتنظيف المنطقة المحيطة بالخُرّاج بحذر

وعناية، وهو يحكي لي بأداء ممثل إذاعي قدير، عن الدنيا عجيبة التصاريف التي ربطت رزقه بالمستشفيات، مع أنه لم يكن يكره شيئاً في الحياة مثل دخول المستشفيات، وأنه ظل لفترة بعد بدء عمله، يكره مشوار المستشفى اليومي، الذي أجبره على قبوله انهيار العمارة التي كان يوجد بها صالونه عقب زلزال ٩٢، وهو الانهيار الذي قضى على محل توارثته العائلة أباً عن جد، لكن مشاعره تبدلت بعد ذلك حينما اكتشف أنه لم يعد مضطراً للبقاء في المحل أغلب ساعات اليوم طلباً للرزق، بل صارت له «نوبتشيات» يعمل فيها، ثم يعود ليقضي مع زوجته وأولاده أوقاتاً جميلة لم يكن قد جربها من قبل، ليكتشف بعد عدة أشهر أن عمله المنتظم في المستشفى رحمه هو وأسرته من مشاوير الدكاترة والعيادات، بكل ما يرتبط بهم من مصاريف وتضييع للوقت وتضارب في الآراء، فضلاً عن زيادة خبرته الطبية مع كثرة ما رآه من «حالات وبلاوي ربنا يعافينا»، لدرجة أنه أصبح يتمنى أن يفتحوا كلية طب في التعليم المفتوح ليلتحق بها، ويصبح «حلاق صحة» من طراز فريد، وليس من الطراز العتيق الذي كان عليه جده الأكبر، الذي توارثت العائلة تاريخاً غير مشرف له في عمليات الختان الفاشلة.

حين قطع الحلاق حكاياته فجأة وقال لي بجدية: «لا مؤاخذة هاتعبك معايا لحظة»، لم أفهم قصده، وهو لم ينتظر

أن أفهم، بل بادر إلى إمساك عضوي من منتصفه، ورفعه إلى أعلى بثبات انفعالي ملفت، وبدأ يحلق ما حوله، وحين لاحظ ارتباكي المريع، لأني لم أكن أتوقع أن تمتد الحلاقة إلى ذلك المكان القريب نسبياً من موضع الخُرّاج، قال لي معتذراً إن هذه تعليمات الدكتور تحسباً لأي تطورات خلال العملية، وحين أدرك أن جملته غامضة وتثير القلق من نوايا الدكتور الذي أثق بسمعته الطبية، لكني لا أعرف تاريخه العقلي والنفسي، لذلك عاد الحلاق الخبير ليقول لي مبتسماً: «وأهوه يعني زيادة الخير خيرين، وانت عارف إن حلاقة العانة فريضة وليها ثواب كبير»، ولكي لا ندخل في نقاش فقهي لا يتحمله الموقف عن الفرق بين السنة والفريضة، قام ببراعة بتغيير الموضوع ليكشف لي سراً من أسرار مهنته، وهو إن أكبر خطأ يقع فيه أي حلاق مستشفى مبتدئ في حالة كهذه، هو أن يقوم بالإمساك بالعضو الذكري للمريض من رأسه ولا مؤاخذة، لأن ذلك سيؤدي إلى انتباه أعصاب المريض، فيحدث انتصاب غير مرغوب فيه يزيد الموقف حرجاً، وأنه تعرض لذلك الإحراج في بداية مشواره المهني، ثم اكتشف بالتجربة أن الإمساك بعضو المريض من منتصفه أسلم وأفضل له وللمريض وللعضو.

أدرك الحلاق أنه بكلامه يَعُكّ الدنيا أكثر، فقرر طمأنتي بالقول إن المرضى كلهم، من ذكور وإناث يشعرون بالحرج،

حين يقوم بحلاقة عوراتهم حين يكونون مضطرين لذلك، وينسون أنه مع التعوّد والتكرار لم يعد ينظر إلى موضع العورة بوصفه مكاناً ذا خصوصية محرجة أو معيبة، بل هو مجرد جزء من الجسم، «زي أي حتة في الجسم»، لكنه يضيف أن حرج الرجال على أية حال، أرحم من حرج النساء، ومن ضيق أزواجهن وأقاربهن الذي يصل أحياناً إلى رفض الاستعانة بخدماته تماماً، ليظل منتظراً خارج غرفة المريضة، حتى يُحسم الجدل بين الأقارب والطبيب، لينتهي الأمر في أغلب الأحوال بتسليمه أدوات الحلاقة لأقارب المريضة، ليقوموا بتنفيذ المهمة بأنفسهم، بينما يكتفي هو بالوقوف خارج الغرفة منتظراً استلام عهدته، وهو يكتم انفعالاته الغاضبة من أولئك الحمقى الذين يظنون أن ما سيراه «أمَلَة يعني» لا يمتلكها أحد في العالم غير نسائهم، والذين لا يدركون بسبب غرقهم في التخلف، أنه لا يختلف كثيراً عن الطبيب ودكتور التخدير وطاقم التمريض، وأنهم لو أطلقوا عليه في المستشفى «أخصائي تجميل» بدلاً من تسميته بالحلاق، لاختلف التعامل معه، ولما جرؤ أحد على التحفظ أو الاعتراض، «لكن هتقول لمين، الجهل نور».

انتهى الحلاق من عمله السريع والمتقن في منطقة الخُرّاج وأطرافها وتخومها، ليقوم بتغطيتها بالملاءة، ثم يبدأ في مسح الفخذين والساقين بأكملهما بمُطهّر، بعد أن قال إن هذه

أيضاً تعليمات الطبيب المكملة لعمله، ثم أضاف مبتسماً إنه في العادة لا يحب الرغي مع «مرضاه»، مع أنه يصعب أن تجد حلاقاً لا يحب الرغي، وأن هذه الخصلة الغريبة كانت تسبب له مشاكل مع بعض زبائنه في صالون الحلاقة، الذين كانوا يعتبرون صمته قرفاً منهم، لكن عمله في المستشفى جعله يغير تلك الخصلة، لأنه أدرك أن المريض يكون في قمة توتره قبل دخول غرفة العمليات، ولذلك أصبح يسترسل في الحكي مع أي مريض، خصوصاً إذا كان سيجري عملية في منطقة محرجة، «زي سيادتك كده»، متمنياً أن يكتب الله ذلك التودد في ميزان حسناته، ومضيفاً أن أكثر ما يضايقه في عمله هذا، هو فهم بعض المرضى وأهاليهم له خطئاً، حيث يقومون بمنحه إكراميات مالية، يرفضها طبعاً، لأنه يعتبر نفسه كادراً طبياً بشكل من الأشكال، وممارس مهنة الطب الذي يحترم نفسه لا يصح أن يتقاضى أجره مرتين، صحيح أن بعض الأطباء سامحهم الله يأخذون هدايا على سبيل المجاملة من مرضاهم، لكنه في النهاية ليس طبيباً، «حتى الآن».

وهو يضع عِدّة شغله في حقيبته الجلدية الصغيرة التي دخل الغرفة وهو يتأبطها باحترام شديد لها، سألني: «عارف سيادتك مين أكتر حد بارتاح في التعامل معاه في المستشفى؟»، ولأنني لم أكن سأجيب، بادر للإجابة:

«الميتين، عليهم ألف رحمة ونور»، وحين رأى اندهاشي الذي غلب تحفظي، قال لي موضحاً بحماس، إنه حين يموت مريض داخل المستشفى بسبب خطأ طبي، أو حين يحين أجله وهو نزيل فيه، «الشر برّه وبعيد عنك»، يرشحه مسئولو المشرحة للأهالي، ويوصون باستدعائه إن كان في أجازة، بعد أن اكتسب سمعة حسنة بسبب عنايته الفائقة، بتنظيف الموتى وتزيينهم، حتى يراهم أهاليهم في أحسن صورة، وأنه يلبي النداء دائماً دون تذمر ودون أن يطلب جزاءاً أو شكوراً، لأن «حسنات الشغل مع الميتين مش زي أي حسنات»، قبل أن يضيف ضاحكاً: «غير إنك مش مضطر ترغي معاهم أصلاً، لإنهم خلاص بطلوا توتر وعرفوا إن التوتر مالوش أي لازمة»، ثم تمنى لي السلامة وخرج من الغرفة، فيما كنت أفكر أنني سأظل أتذكره بقية عمري، كلما كرهتُ عملاً أو وظيفة، أو صادفتُ من يكره عمله أو وظيفته، أو كلما توتّرتُ.

جريمة قتل جماعي لم تتم!

تزاحمت عليه الذكريات الآن، فلم يعد يستطيع أن يجزم، هل كانت العمارة التي سكنوها، مملوكة للدكتور صمويل اسكندر، أم أنها بسبب تلك اللافتة الضخمة المعلقة على بلكونة عيادته، أصبحت تُنسب إليه، حتى في عناوين البريد التي يكتب السكان عليها: (عمارة الدكتور صمويل اسكندر)، ليضمنوا دقة وصول رسائلهم.

لم يستطع أبداً أن يرسم ملامح محددة لوجه الدكتور صمويل الذي رآه في طفولته البعيدة، لكنه كان يربط الاسم دائماً بملامح لرجل ودود أشيب غزير الشعر والذقن. ظلت تلك الملامح غائمة في خياله، حتى رآها واضحة ومجسدة على غلاف علبة شوفان، وهي تجاور أخواتها على رَفّ في سوبر ماركت في مدينة إنجليزية، لم يكن غلاف العلبة ورقياً، وإلا لنزعه عنها ورماها، فهو لم يكن ممن يفهمون الشوفان، لكن صورة العجوز ذي اللحية البيضاء كانت مطبوعة على العلبة المعدنية، ولذلك اضطر لحملها في أمتعته، وحين سأله موظف الجمرك عن كنهها قال له بهدوء: «دواء»، فلم يرتح الموظف للإجابة وسأله عن المرض الذي تداويه العلبة، فأجاب بثقة: «ضعف الذاكرة».

حين أراها العلبة، قالت أمه إنه بالفعل يعاني من ضعف

الذاكرة، ولامته لأنه لم يستمع إلى نصائحها بالانتظام في أكل عين الجمل، وشرب الحلبة الحصى الموصوفة في كتاب (الطب النبوي) الذي لا يمر يوم بدون أن تطالع صفحاته وتقرأ منها لمن حولها.

لم تعد أمه تستغرب رغبته المُلحّة في استعادة وقائع طفولته بالتفصيل الممل، تقول ضاحكة إن «بعض العَبَط أرحم من بعض»، لكنها حين تضيق بإصراره على فرض تفاصيل من ذاكرته تراها خاطئة، تتوقف عن أخذه على قد عقله، وتذكره بأنه كان في سن لا يحتفظ المخ فيها أصلاً بالذكريات، ولذلك يستحيل أن يكون قد حفظ ملامح الدكتور صمويل الذي عالجه وهو في الخامسة من عمره، ثم رحل عن الدنيا بعدها بعام، لكنها تضيف أن صورة (عجوز العلبة) التي شالها على قلبه من بلاد الإنجليز، تذكرها بعجوز آخر يعرفانه جيداً، وحين يهتم بسؤالها عن شخص ذلك العجوز، تقول بعد تشويق لا يطول إنها تقصد عجوز (كنتاكي) الشهير، ثم تطلب منه أن يعمل حسابها معه، إذا هَفّهُ الشوق إلى «أوردر كنتاكي»، وتحذره من نسيان «الكولسلو وطلب رز الريزو المُبهّر».

يقول لنفسه لعله نسي الملامح حقاً، لكنه لم ولن ينس اسم الدكتور أبداً، ربما لأنه كان أول اسم مسيحي يصادفه، فقبله

كانت كل الأسماء حوله إما «حُمِّدت أو عُبِّدت» أو شاع ذكرها بين الناس. لم يكن اسم اسكندر غريباً في الإسكندرية، لكن «صمويل» كان الاسم الذي شغله كطفل، فظل يسأل خاله الأقرب إلى قلبه عن معناه، ليجيبه معابثاً أنه يعني الصامولة التي يجب ربطها في عقول الأطفال المخاليل كثيري الأسئلة، وحين ظل يلح عليه في السؤال، أجابه أنه اسم مسيحي يشبه اسم اسماعيل «عندنا كمسلمين»، والإجابة على قصرها، ولّدت لديه أسئلة متوالية لم يفهم لماذا كانت تضايق الكبار، وحين كبر أصبح يدرك أنها كانت تضايقهم، لأنها كانت تنتمي إلى أصعب ما يثقُل على النفس مناقشته: المُسلّمات، التي لا يراها الأطفال كذلك، ولذلك نأخذهم ككبار على قد عقولهم، حتى يقتنعوا بطريقة رؤيتنا لها.

يتذكر أن مناقشة ساخنة اندلعت يوماً بين خاله وخالته، حين تأففت من ترحم الخال على الدكتور صمويل، قائلة إن الرحمة لا تجوز إلا على المسلمين، وخاله قال لها إن دروس من وصفهم بـ «شيوخ آخر زمن» لحست مخها خلاص، مشيراً بالتحديد إلى دروس كانت تحضرها في جامع قريب من بيتهم، كان يقيمها شيخ اشتهر في تلك الأيام بكونه قبطاناً بحرياً سابقاً، ثم انطفأت شهرته بعد فيضٍ من الشائعات والأقاويل عن زواجه من إحدى الفنانات المعتزلات.

يتذكر غضب خالته الشديد في تلك الأيام، الغضب بمناسبة ودون مناسبة والذي ظل يلازمها طويلاً، حتى لم يعد يذكرها إلا به، ويتذكر أنها بعد تجربة الزيجة القصيرة الفاشلة، لم تعد تشاهد معهم التمثيليات، ولا تشاركهم في مشاهدة شرائط الفيديو التي يحضرها الخال في يوم أجازته، وحين تعبر الصالة فترى مشهد رقصة، تنظر إلى أمه وتقول غاضبة: «عاجبك اللي بتعمليه في عيالك ده، انتي يعني قد غضب ربنا؟»، ثم تمضي محوقلة مستغفرة، فيقف خاله ليتأكد من دخولها الحمام، ليشارك الراقصة في رقصتها متثنياً متشخلعاً، فيما يحاول الجميع كتم الضحك اتقاءً لشر عَركَة لا قِبَل لهم بها.

يتذكر خالته المرهَقَة على الدوام حين أرسلته ذات يوم لشراء دواء للصداع، مؤكدة عليه ألا يأتي به من الصيدلية التي تقع أسفل العمارة المجاورة، وأن يمشي خطوتين زيادة ليشتريه من الصيدلية المواجهة لمستشفى (إيزيس)، وحين سألها عن الحكمة في تفضيل صيدلية بعيدة على صيدلية شديدة القرب، شخطت فيه ليسمع الكلام واتهمته بأنه يكره أن «يهزّ طيزه شوية»، ثم خشيت ربما أن يتحايل على تعليماتها غضباً منها، فقرّبته منها ومسحت على رأسه بمودة، ثم قالت وقد خفضت صوتها وعقدت حاجبيها، إنه لا بد أن

يأخذ باله لأن هذا الموضوع فيه حياة أو موت، ولأنه كان معروفاً بأسئلته «الرزلة»، فقد استبقت أسئلته بقولها إن أصحاب الصيدلية القريبة مسيحيون، وأنهم حين يأتيهم من يشتري الدواء، ينظرون على الفور إلى باطن يده ليعرفوا من وجود الصليب عليها أو غيابه، ما إذا كان مسلماً أم مسيحياً، فإن كان مسلماً أعطوه دواءاً به مكونات تتسبب في الموت البطيء، ليقل عدد المسلمين في البلد، وكانت تلك المرة الأولى التي يعرف فيها أن عدد المسلمين كثير في البلد، وأن عدد المسيحيين قليل بشكل كان يزعجهم لدرجة القيام بالقتل.

يذكر أنه حين سأل خالته بحماس: لماذا إذن لا يقبض البوليس على أصحاب الصيدلية القتلة وأمثالهم؟ ردت بهدوء أكسب كلامها منطقية ملائمة لسنه، حيث طلبت منه ألا ينسى أنهم صيادلة متخصصون، يدسّون السم بمهارة لا يستطيع أحد اكتشافها، وأن الكنيسة لذلك السبب تشجع المسيحيين على دخول كلية الصيدلة، لتنفذ مخططها في تقليل عدد المسلمين، ولكي لا يطيل في «فَرهَدتها» بالأسئلة، ذكّرته بأنها تعرف ما تقوله، لأنها كانت تعمل موظفة إدارية في مستشفى، وطلبت منه ألا يخبر أحداً بتلك التفاصيل، وحين قال إنها يجب أن تخبر الجميع ليحذروا من شراء الدواء، شخطت فيه وطلبت منه أن يسرع، لأن الصداع الذي

كان محتملاً، صار «يفرتك دماغها» بسبب أسئلته ولماضته.

لم يُكسِّر لخالته كلمة، واشترى لها الدواء من الصيدلية البعيدة التي لا يضع أصحابها المسلمون السم في الدواء، وإن كان قد سألها فيما بعد، لماذا لا تقترح عليهم أن يضعوا السم في أدويتهم للمسيحيين ليرتاحوا منهم، لكنها لم تتحمس للاقتراح، وقالت له إن المسيحيين أوعى منا بكثير، ولذلك لا يشترون أي أدوية من صيدلية صاحبها مسلم، وهو لم يُطِق كتمان تلك الأسرار طويلاً، فصارح خاله بها، وبدا له أن خاله المصدوم والغاضب، يرغب في قول الكثير، لكنه لم يقله مجاهداً في كتمه كما أوحت بذلك قسمات وجهه المحتقن، واكتفى بأن يطلب منه التعامل مع كل ما تقوله خالته، بوصفه حكاية خيالية كالتي تأتي في حكايات برنامج (سينما الأطفال)، وأضاف أنه حين يكبر ويعقل أكثر، سيعرف الكثير عن الدنيا لوحده، لكن هروب خاله من التفنيد المستفيض لحكايات خالته، لم يُنهِ شكوكه في أهل تلك الصيدلية، فظل ينظر إليهم بحذر وريبة كلما مر إلى جوارهم، ويتخيل في نومه وصحوه بطولات وهمية، يبلغ فيها البوليس عنهم، أو يقتحم بنفسه مصنعهم السري للسموم، مشهراً مسدسه وصارخاً بعزم ما فيه: «سَلِّموا نفسكو يا مسيحيين، المكان كله محاصر».

يتذكر أن خالته لم تشارك الجميع في تأثرهم وأسفهم، حين باع ورثة الدكتور صمويل اسكندر شقة أبيهم بعد سنين من غلقها، وحين قام الساكن الجديد بعد شهور من إقامته، بنزع اللافتة السوداء الكبيرة التي اشتهرت بها العمارة، يومها ترحم كل من في العمارة وما حولها على الدكتور صمويل، وذكروه بكل خير، ومع أن ذكره لم يأت كثيراً بعد رحيله وبيع شقته ونزع لافتته، إلا إن سيرته الطيبة كانت تحضر من حين لآخر، في معرض الحديث عن جشع دكاترة الأطفال أو نقص مهارتهم، فيقول الكل عنه إنه كان «دكتور شاطر ما عادش في زيّه اليومين دول»، ثم يحكون عن عيادته التي فتحها طول عمره للفقراء مجاناً، ومع أنه قام بتعليق لافتة بثمن الكشف خلف مكتب سكرتير عيادته، إلا أنه كان يقبل بأي مبلغ يدفعه المترددون عليها، حتى وإن كان ورقة بخمسة ساغ.

يتذكر استغرابه حين كانوا يقولون ذلك كدلالة على تفاهة شأن «الخمسة ساغ»، التي لا يرونها مثله شيئاً ذا قيمة، فيقول لنفسه: آه لو عرفوا بمواظبته على سرقة أوراق «الخمسة ساغ والعشرة ساغ»، وتدكينها في شق الأرضية الخشبية القديمة في طرف غرفته، فإن اكتمل منها ما قيمة تجميده ربع جنيه، طار بها إلى بائع الكتب القديمة أسفل العمارة، الذي كان يترك محله لابنته الجميلة، والتي كان

يعرف أن خاله الآخر يحبها، ولطالما حسده عليها، قبل أن تترك خاله كسير القلب، ويترك أبوها المحل والمنطقة، فيضطر بعدها للتعامل مع كشك الجرائد المواجه للفرارجي القريب، والذي اكتشف لديه أن كلمة (سوبر) تضيف إلى أسعار مجلة ميكي ما لا يقدر عليه، وأن أعداد مجلات (تان تان) و(لاكي لوك) التي كان يحصل عليها بتراب الفلوس من حبيبة خاله، لم يعد للحصول عليها طريق إلا السرقة.

يتذكر كيف تغيرت استراتيجيته، بعد أول علقة نالها من جدته، لأنها لم تصدقه حين قال إنه وجد نصف جنيه في الشارع، فاشترى به مجلة (سوبر ميكي). لم يكن قد تصالح بعدُ مع قسوة جدته، ليلمس الحب المخبأ بإحكام داخل تكشيرتها الدائمة، لكنه كان يقول لنفسه إنها على أية حال لا تضرب بافتراء مثل أبيه، ولا تعظ طويلاً كأمه، تضرب سريعاً وتنسى سريعاً، وتشتم وتعد بالويل والثبور، ثم تهدأ وتنشغل بمتابعة حلقات مسلسل (نوتس لاندنج) التي لا تنتهي، وتسمح له أن يشاركها الفرجة، شريطة أن يغمض عينيه في مشاهد القبلات.

بعد العَلقة المتينة، لم يعد يصطحب المجلات معه إلى البيت، كان يشتري العدد أو يسرقه، ويختار رصيفاً ليقرأ المجلة عليه، مغيراً جلسته بانتظام، لكي لا ينطبع الرصيف

على مؤخرته، ولعل ذلك ما أكسبه سرعة القراءة التي كانت تثير غيظ زملائه، ثم يعيد المجلة إلى الكشك بعد أن ينتهي، ويقول إنه سيستبدلها في الغد بعدد آخر من مجلة أخرى، ليوفر ثمنها للرمرمة في عربة المكرونة الملاصقة لفرن الفينو، أو عربة الكبدة المواجهة لمبولة «القُقها»، التي حملت اسمها من القهوة المجاورة، التي يتجمع عليها المقرئون في انتظار مقاولة على عزاء جديد، أو يوفرها لشراء سندوتشات الفول الأشهى في حياته، والتي كان يشتريها، كلما أرسلوه إلى شارع (زين العابدين)، ليحضر لهم اللبن الصابح، من محل ألبان لم تكن الجدة تؤمن بغيره، تعطيه ثمن تذكرة الترام ليركب من محطة مصر القريبة، فيرتجل في فنون التزويغ من الكمساري في الذهاب والعودة، ليشتري سندوتش فول إضافي من المحل الملاصق لبتاع اللبن، يأكله بنهم ممزوج بالفخر، لأنه لم يضطر لشرائه بفلوس مسروقة، فهو لم يكن يعتبر التزويغ من الكمساري سرقة، لأن خاله الذي سبق أن سافر إلى أوروبا في رحلة جامعية، قال له إن الأطفال هناك يركبون المواصلات مجاناً.

أعطت تلك المشاوير لحياته معنى لم يكن قد عاشه من قبل، ولعله لم يعش مثله من بعد، لكن مغامرته الأكثر إثارة وتشويقاً، كانت حين سرح ذات يوم في مشوار شاركه فيها صديقا صِبا، حيث قادهم التسكع إلى شوارع (غيط العنب)،

ومنها إلى مخازن القطارات القديمة التي ظلت لفترة طويلة مستقرة هناك، وفي طريق عودته تذكر مفزوعاً أنه نزل من البيت مُكلّفاً بشراء دواء للأنفلونزا التي كانت يومها متفشية في البيت، كانت جدته قد وضعت له ثمن الدواء داخل غلاف العلبة، لكي لا يخطئ في اسمها، ووعدته بنهار أسود من قرن الخروب إن أضاع العلبة وما فيها.

لم يعد يتذكر الآن، هل جرى في البدء نحو صيدلية (إيزيس) فوجدها مقفلة؟ وهل ذهب بعدها إلى إحدى الصيدليات التي أوصته خالته بها؟ لكنه يتذكر أنه وجد نفسه داخل صيدلية المسيحيين التي حذرته منها خالته، وأنه مد يده بالعلبة للصيدلانية الشابة، التي استقبلته بابتسامة لطيفة، وأخذت تسأله عن سر لهاثه وعرقه، وحين لم يتجاوب معها، وضعت الدواء في كيس ورقي، واستوقفته ليأخذ الباقي الذي نسيه، ويتذكر أيضاً أن ما قوّاه على فعلته تلك، كلام خاله عن ضرورة عدم تصديق ما تقوله الخالة الغاضبة على الدوام.

ولأنه كان معروفاً في البيت بغرابة أطواره، لم يتوقف أحد من أفراد أسرته عند نظراته الزائغة المطولة إلى الذين أخذوا الدواء منهم، ولم يُثر ريبتهم حرصه على التأكد بنفسه من استيقاظهم صباح اليوم التالي، ولا أسئلته المتكررة عن

شعورهم بالتحسن، ليدرك سريعاً أن خاله كان محقاً فيما قاله عن تخاريف خالته، فينشغل تماماً عن جريمة القتل الجماعي التي لم تتم، بالتفكير فيما سيفعله بالنصف جنيه الذي «خنصَره» من باقي ثمن الدواء، والذي لم يكن متأكداً هل تركته الجدة بمزاجها مكافأة له، أم أنها نسيته. لكنه كان قد عزم على تجربة اختراع طبق الكشري بالكبدة الذي سمع صديقيه يقولان فيه قصائد شعر بالأمس، ويثنيان بالتحديد على كشري (الصاروخ) الذي أكلا الطبق عنده، والذي يكتسب الأكل لديه متعة إضافية، لأنه يقع مباشرة على شريط الترام الذي يعبر بميدان محطة مصر، الذي لم يقتنع أحد عبر السنين الطويلة، بمناداته بالاسم الذي اختارته له الحكومة: ميدان الشهداء.

يتذكر أنه قبل أن يعقل وتهدّه الدنيا قليلاً، كان يستلذ بالدخول في مماحكات مع أبناء المدن الأخرى، عن خصوصية أكل الشارع في الإسكندرية، وتفرده بالنظافة واللذة، ثم يتذكر أن تلك التفاصيل التي يفاخر بها، لم تكن تعني له شيئاً وهو طفل، فقد كانت قيمة أكل الشارع الحقيقية، أنه كان الفاكهة المحرمة التي يحذره كل من في البيت منها، لأنها ستصيبه بالدودة الشريطية، التي تسكن الأمعاء وتتغذى عليها حتى تصبح بحجم الثعبان، مما قد يضطرهم لنزع أمعائه فيكمل حياته بمصارين فاضية، لكنه

كان يتعامل مع تلك التحذيرات، نفس تعامله مع تحذيراتهم من المجلات المصورة، التي تُربّي العبط في نافوخ العيال، وتكرههم في كتب المدرسة.

لكن ذلك لم يكن رأي خاله الأعزّ، الذي كان يشجعه على قراءة المجلات، منذ عرف بسره من فتاة المكتبة، صحيح أنه غضب حين رآه يجلس على الرصيف، يقرأ ويأكل سندوتش فول باستمتاع «المفجوع»، لكنه لم يفشِ سره ولم يمد يده عليه، حين خمّن مصدر مال المجلة والسندوتش، وفي الصباح التالي، أيقظه من أحلى نومة، ليفطر معه قبل أن ينزل إلى شغله، ولم يكن قد استيقظ في البيت سواهما. أشار الخال إلى طبق الفول «المتحبِّش» بالطحينة والبصل والفلفل، وقسم رغيفاً كان إخوته الخارجين بنار الفرن، قد فُرِّدوا فوق صحيفة على الكنبة، وقال مبتسماً: «كل وقل لي رأيك يا معفّن»، ليبدءا طقساً ظلا يتشاركانه سنين طويلة، قبل أن تبعدهما الدنيا بتلاهيها وبلاويها عن مثل ذلك الروقان، وقبل أن يعرف منذ أيام، أن عمارة الدكتور صمويل اسكندر انهدّت بعد أن باع كل ساكنيها القدامى شققهم، وغادروا المنطقة إلى أماكن أروق وأهدأ، لكن المالك الجديد لم يستفد منها شيئاً بعد أن هدمها، لأن مسئولي المحافظة وجدوا أسفلها آثاراً رومانية، فأعلنوها منطقة أثرية، ولا يظنهم سيتفهمون الأمر، لو اقترح عليهم أن يكتبوا على

اللافتة المعلقة على السور المحيط بالأرض: «هنا كانت تقف وتعيش عمارة الدكتور صمويل اسكندر».

إنسانة عادية

(١)

حين نلتقي، سأريك بطاقتي الشخصية، فبها وحدها ستصدق أن عمري ٤٥ سنة فقط، ولست في الستين من عمري، كما يظن كل من يراني، لأسباب ستعرفها حين تكمل قراءة حكايتي.

أعرف أنني لا أستحق الآن وصف «إنسانة عادية» الذي كرّرت وصف نفسي به في حديثي السابق معك، ربما لأنني لم أكن أطلب من الدنيا والله، غير أن أظل كما كنت في البداية، إنسانة عادية تمر حياتها برتابة وهدوء، كما يحدث لملايين الناس العاديين، لا أقول الذين تخلو حياتهم من المصائب، فقد أصبحت أعرف بالتجربة «إن ما حدّ م الهم خالي»، لكني كنت أتمنى أن أكون من ملايين العاديين، الذين تنزل بهم طيلة حياتهم مصيبة أو مصيبتان بالكثير: مرض خطير يأتي على غفلة ويا حبّذا في نهاية العمر، رحيل أب أو أم بعد عمر طويل وبعد أن أدّيا رسالتيهما على أكمل وجه، حادث طارئ يروِّع ويؤلم لكنه يعبر في نهاية المطاف، أزمة مالية طاحنة تستحكم ثم تُفرج. هذا كل ما كنت أتمناه، أن أظل إنسانة عادية بمصائب عادية.

لكن حتى لا يأخذنا الكلام ونتوه فيه، دعني أبدأ لك حكايتي من أولها:

تربيت وسط عائلة ميسورة الحال، مكونة من أب وأم وأخ وحيد أصغر مني بست سنوات، لا تَخَف على وقتك من الضياع في بحر من الحكايات، فلم يكن في النصف الأول من عمري ما يستحق أن أتوقف عنده، سوى أخي الأصغر الذي كان أبرز ما في طفولتي وصباي وشبابي، ليس لأن صلتي به كانت وثيقة في طفولتنا، بل لأن الله حباه بكل الصفات التي لم أولد بها، فهو جميل الوجه، ذكي، خفيف الظل، نبيه، يأخذ بقلبك حين يتحدث، ولذلك كان كل ما يفعله أو يقوله، يذكّر كل من حولنا، بأنني خُلِقت على عكس أخي تماماً: سمراء الوجه، محدودة الجمال ويقولون أنني كنت محدودة الذكاء أيضاً، أضف إلى ذلك ابتلائي منذ الصغر بضعف شديد في السمع في أذني اليسرى، وهو ما جعلني أكمل تعليمي بالكاد، لأحصل على مؤهل متوسط، عملت به في وظيفة حكومية لم يكن لها قيمة، سوى أنها كانت تساعدني على الهروب من ملل زواجي، الذي كان يفترض أن ينتهي مبكراً، لولا أن رزقني الله بابني «الحيلة»، الذي تحملت من أجله زيجة تعيسة مع أحد زملائي في الوظيفة، كان زواجي بكل المقاييس خطئاً لم يكن بوسعي تجنبه، لأسباب لا أظنها تخفى عليك، فأنت «من هنا وعارف»، لكنني على

الأقل بعد أن أدركت أن اختياري لزوجي كان خطئاً، حرصت على ألا أكرر خطأ إنجابي منه، وساعدتني صحتي «التعبانة» على ذلك.

لم يلزمني وقت طويل لأكتشف أن زوجي دخل بيتنا من الأساس على طَمَع، كان ريفياً شديد الطموح، غَرّه مظهر بيتنا، حين زارني يوماً مع بعض زملاء العمل، بعد أن أصابتني وعكة صحية غيّبتني عن العمل، فظن أننا يا ما هنا يا ما هناك، ولم يدرِ أن حسن تدبير أمي وذوقها الرفيع وتحكمها الشديد في أبي ومصاريفه، جعلها قادرة على وضع أسرتنا في مكان أكبر مما كنا عليه بالفعل.

في البداية لم يرتح أبي لزوجي، ربما لأنه كطماع قديم شم رائحة طمع زوجي، لكنني تمسكت به، لأنه ببساطة كان العريس الوحيد الذي تقدم لي. تضامنت أمي معي بعد أن أجاد زوجي الاستحواذ على قلبها بلسانه، الذي اكتشفت أن حلاوته تخفي خلفها قسوة ودناءة أجارك الله منهما.

لم يكن زوجي محتاجاً للمزيد من التصنع والمداهنة، حين اكتشف أن أبي لن يشاركه في ماله، حتى لو كان أخي الذي من صلبه، فقرّر تغيير طريقه المرتجى إلى الثراء السريع، ليمر بدولة خليجية، عاش فيها سنوات طويلة بعيداً عني وعن ابنه، لا نراه إلا أياماً من كل صيف، مكتفياً بما يرسله

لابنه من هدايا تافهة، في حين كنت أسد من جيبي عجز ما يرسله عن تلبية مصاريفنا التي يضاعفها غلاء المعيشة، وحين رأيت بالصدفة في واحدة من أواخر أجازاته التي قضاها معي، صورة لحوالة مالية ضخمة أرسلها إلى أخيه في القرية، وواجهته بالتساؤل عن سر ذلك التفريق البشع في المعاملة، وعما كنت قد سمعته من قبل في أواخر مكالمة بينه وبين أخيه، عن قطعة أرض يفكر في شرائها في قريته، استفزني إنكاره لكل ما سمعته وشاهدته، وإصراره على أنني أتوهم وجود صورة الحوالة وتفاصيل المكالمة، مؤكداً أنه لو كان ما أقوله صحيحاً لوجب عليه أن يطلقني لأنني سأكون حينها «ست غير محترمة» تتصنّت على زوجها وتفتش في حاجاته دون إذن.

كانت تلك من المرات النادرة التي يراني فيها غاضبة، مع أن غضبي كان منضبطاً، حيث اكتفيت بمواجهته بما قمت بإنفاقه خلال السنوات الماضية على ابنه والبيت، كأنني مطلقة أو أرملة، وقلت له إنني إذا كنت قد تنازلت عن أهمية أن يكون في حياتي رجل أعيش معه ويملأ حياتي، وتغاضيت عن حقوقي الزوجية واستعوضت ربنا فيها، حتى حين يأتي في الأجازة فيتحجج بضيق الوقت وكثرة المشاوير، فإنني لن أتنازل عن حقوق ابني المالية مهما حدث، لأفاجأ به وقد مد يده التي تستاهل قطعها عليّ لأول مرة،

وأخذ يتهمني بالنقص وقلة الأصل، لأنني أعايره بما أصابه من أمراض بسبب الغربة التي أكلت عمره من أجلي وأجل ابني، لكنه لم يُطِل كثيراً في فقرة المسكنة التي كان يمكن أن تشعرني بالخجل مما قلته له، فأنا عبيطة في نهاية المطاف ولا أحب المواجهات العنيفة، بل انتقل إلى فقرته المفضلة التي يذُمّ فيها وجهي العَكِر الذي يسد النِفس عن الحياة، ويلعن جسمي «المِكَعبر» الذي يفتقد إلى أبسط معالم الأنوثة التي يمكن أن تساعده على التفكير في النوم معي، حالفاً أنني لن أنول مليماً من شقا عمره الذي سيكتبه كله باسم ابنه، لأموت بحسرتي وطمعي، مثل أهلي الذين طلعت لهم بخيلة نتنة أموت على القِرش.

لم يوقف «البلّاعة» التي ضربت من فمه، إلا صوت قدوم ابني إلى الشقة، لأتحلى على الفور بضبط النفس، وأقرر تجاهل المصيبة التي حدثت، لكي لا أفسد على ابني فرحته بوعد أبيه له بالذهاب إلى السينما، خاصة أن العلاقات بينهما كانت قد شهدت توتراً حاداً قبل أيام، حين فوجئ ابني بوصلة سخرية حادة صبها أبوه عليه، لأنه فاتحه برغبته في دخول الجامعة الأمريكية أو أي جامعة خاصة لدراسة هندسة الكمبيوتر، بعد أن خذله مجموعه في الثانوية العامة لعامين على التوالي، قال له أبوه بغلظته المعهودة إنه يفضل إلحاقه بمعهد فني صناعي، ليكسب صنعة تفيده في

مستقبله، خاصة وقد أثبت مرتين على التوالي أن «مخه تخين وليس له في التعليم»، ولولا أنني قمت ساعتها بلَمّ هدومي لأترك له البيت إلى الأبد، لما كان قد صالح ابنه ووعده بالتفكير في طلبه بجدية، وأنه سيحرص على أن ينال أفضل فرصة تعليم ممكنة، وكانت فرحتي بفرحة ابني بتغير موقف والده، هي التي جعلتني أتغافل عن ضرورة الحذر من تغير مفاجئ كهذا، وكأن حذري كان سينجيني من قدري.

كان أخي قادماً لزيارتنا بالصدفة في اليوم التالي لخناقتنا، وحين رأى أثر كف زوجي على خدي، أشعل البيت ناراً. يعني، لم أكن أتوقع أن يكون أول مسدس أراه في حياتي، مصوباً إلى رأس زوجي الذي وجد نفسه مضطراً للانحناء على قدمي لتقبيلها، لكي يوافق أخي على إبعاد مسدسه عن رأسه، دون أن تفلح توسلاتي الباكية وصرخات ابني المذعور في تهدئته وإصراره على أن يقبل زوجي قدمي على الفور.

لم يكن بين أخي وزوجي عَمَارٌ منذ أن تقابلا لأول مرة، كان زوجي يراه شاباً مدللاً لا يستحق الحياة الناعمة التي ولد فيها، وكان أخي الذي اكتوى بنار بُخل أبي، يكره بُخل زوجي وتقتيره الدائم علينا، ويحرضني دائماً على الوقوف في وجهه، أو السماح له لكي يتصدّر من أجلي، لذلك رأى فيما

حدث فرصة لإفراغ غِلّه، ربما لن تتكرر بسبب سفر زوجي المتكرر، ولم يكن يعلم الثمن الذي سأدفعه بسبب ذلك الموقف، الذي لست متأكدة أنه انتصر فيه لي، بقدر ما انتصر فيه لنفسه، ولفخره الطفولي بمسدسه الذي ساعده أصدقاؤه الضباط على ترخيصه، بوصفه رجل أعمال يحتاج إلى تأمين نفسه، مع أن عمله في إحدى شركات التسويق العقاري الكبرى، حيث التعامل بالشيكات والتحويلات البنكية، لا يجعله محتاجاً إلى حمل مسدس ولا يحزنون.

كانت زيارات أخي لمنزلي، قد تكررت خلال العامين الذين سبقا تلك الواقعة اللعينة، ولم يكن وراءها حرص عاطفي محمود على صلة رحمه كما ظن أبي، أو رغبة في تقضية الوقت مع ابن أخته الذي أيقظ فيه مشاعر الأبوة كما ادعى، فكل ما في الأمر أنني بعد وفاة والدتي متأثرة بالمرض الخبيث، فوجئت وفوجئ الجميع بأنها تركت لي في وصيتها، شقة كبيرة كانت قد ورثتها عن والدها، تقع في أحد شوارع حدائق القبة، كما تركت لي مبلغاً من المال، وتركت أكثر منه لأخي، وفوجئت أنها حرصت قبل وفاتها في سرية تامة على تغيير عقد ملكية الشقة وكتابته باسمي، لكي تضمن ألا ينازعني فيها أحد، كما حرصت على توثيق وصيتها لدى محام من أقاربها، ربما لأنها تأثرت بحسن رعايتي لها في أيام مرضها التي طالت، ورأت فيها يا عيني بهدلة لم تكن على

البال ولا الخاطر، وربما لم يكن في تلك الأيام من خير، سوى أنها قربتني منها بشكل لم يحدث طيلة عمري، ويشهد الله أنني كنت أخدمها بإخلاص دون أن أنتظر منها شيئاً، لسبب بسيط هو أنني كنت كأبي وأخي نجهل كل ما كانت تملكه أمي، لأنها أجادت ببراعة مدهشة إخفاءه عن «إيدين أبي الطايلة».

بالطبع، لم يكن ما تركته أمي لي ولأخي مفاجأة سارة لأبي، الذي لم يحتج أكثر من يومين بعد رحيلها، ليبدأ في الزنّ على أدمغتنا، بالحديث عن ماله وشقا عمره، الذي قامت المرحومة عبر السنين بالتدكين منه دون إذنه، فأعطت في النهاية ما لا تملكه لمن لا يستحق، معتبراً أن في رضانا بذلك ظلماً لا يرضي ربنا، ومؤكداً أنه لن ينتظر صحوة ضميرنا لتصحيح ذلك الخطأ، بل سيسلك كل السبل المتاحة لرد الحق إلى صاحبه، فور أن ينقضي على رحيلها أربعون يوماً، ليرى قبل ذلك الموعد من أخي وجهاً لم يكن يتصور وجوده، فقد كان متعوداً منه في كافة خناقاته معه، على الصمت والتطنيش والاحتماء بأمنا التي كان يقول لها دائماً أنها أفسدت أخلاق أخي وخيبت أمله، وهو ما لم يعد أبي لتكراره، حين فوجئ بأخي وقد جذبه من تلابيب جلابيته، وهدده بالرمي من الدور الثامن، لو سمعه يجيئ بسيرة أمه أو يتحدث عن حقه في ما تركته لنا.

ولأن أبي ظن أن ما يقوله أخي، ليس سوى تهديد فارغ من «عيِّل قليل الرباية»، ولأن صحته لم تعد تساعده على ضرب أخي بالقلم أو حتى حدفه بشبشب أو ما شابه، فقد كان من الطبيعي أن يلجأ إلى التصعيد بلعن سنسفيل أمي وخِلفتها الوِسخة، فيجد نفسه بعد لحظات متدلياً من البلكونة رأساً على عقب، معلقاً في الهواء المُطل على أسفلت الشارع، لا يحميه من السقوط فيه، إلا قبضتا ابنه الذي أخذ يصرخ فيه صرخات هستيرية أفزعت الجميع، ولم يهدئها قليلاً إلا عويل أبي الذي لم يستنجد بأحد، بل أخذ يطالب أخي بالإسراع في رميه ليخلص من حياته، في مشهد دراماتيكي، لا زلت لا أسامح نفسي، كلما أتذكر أنني ابتهجت برؤيته للحظات، قبل أن أهب محاولة بحذر إنقاذ أبي من حمقة أخي التي لم أكن قد رأيت مثلها من قبل، ولذلك كنت أدرك خطورتها حين تكررت مع زوجي بعد ذلك.

كنت متأكدة أن زوجي كان سيطلب أجازة عارضة فور علمه بتلك التطورات المالية المفاجئة، حين يعود لأداء واجب العزاء، وبدأت أفكر فيما يجب علي فعله، لأحمي تلك الثروة التي هبطت عليّ من حيث لا أحتسب، لتظل خالصة لابني في المستقبل، لكن زوجي وفّر علي كل ذلك بنذالته المتأصلة التي جعلته يكتفي بمكالمة روتينية منحطة يعزينا

فيها من طراطيف لسانه، مفسراً عدم نزوله لأداء الواجب، بخوفه من غضب الكفيل الذي لا يهمه موت أم ولا رحيل حماة، ولذلك لم أخبره في كل المكالمات التالية بأي مما حدث، لأستمتع في أجازته التالية بملامح وجهه المذهولة ثم المحتقنة ثم المتميزة غيظاً ثم المنفجرة غضباً، وأنا أحكي له عن استجابتي لاقتراحات أخي بالدخول معه بما ورثته عن أمي من مال، وبما سبق أن ادخرته، للمساهمة في شراء قطعة أرض كبيرة على أطراف القاهرة، خاصة أن أخي علم بفضل صداقاته وعلاقاته، أن شركة عربية تحضر لإنشاء مجمع سكني فاخر في تلك المنطقة، وحينها سيكون مكسبنا من بيع الأرض للشركة، أضمن استثمار يمكن الحصول عليه في تلك الفترة من أوائل التسعينات التي كان بناء المجمعات السكنية الفاخرة فيها أحدث صرعات الاستثمار وأضمنها.

وعلى عكس ما اتهمني به زوجي، لم أكن بلهاء لكي أطاوع أخي في مشروع قد لا يجيئ بهمّه، فقد كان أخي شاطراً في شغلته وخبيراً بزواريقها، ولذلك رأيت في ما اقترحه فرصة لضمان مستقبل ابني، الذي لا أريده أن يعتمد على أب بخيل، كما حدث لي ولأخي من قبل، ولو كنت عبيطة كما قال، لكنت وافقت على عروض أخي المتكررة ببيع شقة حدائق القبة، لكي أقوم بتكبير المبلغ الذي سأساهم به معه، بل إنني رفضت بعد ذلك عرضه بتأجيرها، حالفة له على المصحف أن

أمنا عليها ألف رحمة ونور زارتني في المنام، وحلفتني بدورها على المصحف ألا أفرط في هذه الشقة أبداً، وألا أدخل إليها غريباً أياً من كان، وأن أوصي ابني من بعدي بعدم التفريط فيها، لأصوم بعدها ثلاثة أيام تكفيراً عن القسم بما لم يحدث، وإن كنت لم أستبعد أن يحدث بالفعل، لو كنت قد طاوعت أخي، والحمد لله أنني لم أفعل.

لم أدرِ بعدها، هل أهنئ نفسي، لأنها باتت عاجنة خابزة لوطاوة زوجي ونذالته، أم أبكي على حظها العثر لأنها لم يُكتب لها ولو لمرة أن تفرح بصحة افتراض الخير والجدعنة فيه. يعني، كنت أظن أنني وجهت له رسالة شديدة الوضوح، حين أسهبت في رواية رُفضي المتكرر لمحاولات أخي إقناعي ببيع أو تأجير شقة حدائق القبة، ومع ذلك لعبت الشكوك في عبّي، حين وجدته يثني على ما فعلته، ويوافقني على أن من الحكمة ترك الشقة كما هي دون تأجير، لأن المستأجرين إذا سكنوا شقة أفسدوها، ودون بيع، لأن أسعار السوق متقلبة لا تعرف لها رأساً من رجلين، وأن ابننا سيشكرني على ذلك بعد عمر طويل، حين أتركها له ليتصرف فيها كما يشاء، أو يتركها بدوره لأبنائه.

وربما لو لم يكن قد احتضنني بحرارة غير مسبوقة، وطبطب على ظهري مراراً، وباس رأسي أكثر من مرة بعد ما

قاله، لما كنت قد شككت في نيته، ولما كان أول ما أفعله في اليوم التالي، أن أذهب إلى الشقة وأقوم بتغيير كالون بابها، وأوصي أقارب أمي المقيمين في العمارة، على أن يأخذوا بالهم من أي حركة مريبة تحدث فيها، ليأخذ زوجي والسمسار الذي اصطحبه إليها بعد يومين علقة ساخنة، حين حاولا كسر باب الشقة ليقوم السمسار بتصويرها، والتفكير في زبون مناسب لها، وربما لو كان النذل قد أتعب خاطره بحضور جنازة أمي وعزائها، أو كلّف نفسه وجيبه بعمل فرح كبير ولائق لي، لكان أحد أقاربها قد رآه وعرفه، فصدّق حلفاناته لهم بأنه زوجي وأبو ابني، لكنه زاد الطين بلة، حين قال لهم إنه موفد مني للإعداد لبيع الشقة التي تحزنني لأنها تذكرني بأمي، في حين كنت قد قلت لقريب أمي الساكن في الدور الأعلى، إنني أفكر في الانتقال للإقامة في الشقة فترة أطول، لأني أحس بروح أمي ترفرف فيها، وأنني أرتاح نفسياً فيها كما لم أرتح من قبل في أي بيت سكنته.

بالطبع أقسم لي اللعين أن ما حدث كان صدفة بحتة، وأنه حاول الاتصال بي على هاتف البيت لاستئذاني، بل وحلف على المصحف أنه اتصل بي على تليفون المكتب، فأبلغوه أني ذهبت إلى مأمورية مستعجلة، ولم يهدأ له بال حتى اتصلت بزميلتي في المكتب لأسمع منها تأكيداً على اتصاله، ومع أنني أقسمت له أن الموضوع انتهى، إلا أن ما حدث

قادني للشك فيه أكثر، فقمت لأول مرة بتفتيش جيوبه وأدراج مكتبه، لأجد فيها ذلك الإيصال الذي قاد إلى الخناقة التي أفضت إلى مد يده عليّ، وتصويب المسدس إلى رأسه، ومع أن المسدس عاد إلى جراب أخي دون أن تنطلق منه رصاصة، لكن مجرد خروجه من جرابه، أطلق رصاصة الرحمة على الأكذوبة التي عشت فيها أكثر من عشرين سنة، لكن زواجنا التعيس لم يمت لوحده، بل أخذ معه روحي وابني وحياتي التي برغم بؤسها، كانت عادية.

(٢)

لن أطيل عليك، مع أن نار الله الموقدة في صدري ترجوني أن أفعل، لعل الفضفضة تمنحني راحة مؤقتة أحتاجها وأستحقها.

سنوات مضت منذ أن حدث ما حدث، ولا زالت نفسي اللوّامة تسألني كل ليلة: كيف أمكن أن تُلدغي من نفس الثعبان وفي نفس الجُحر بدل المرة ألف مرة؟ فأجيبها ساخرة منها ومواسية لها، أنني لم أعرف في حياتي مؤمناً إلا وكان زبوناً وفياً للجُحر الذي لُدِغ منه، ثم آخذ بعدها في استرجاع تفاصيل ما جرى لأذكر نفسي بأنني برغم كل شيء لم أُخدع بسهولة، وأنني مهما أفرطت في حذري، لم يكن ذلك سيغني عن قدري.

المهم، لم يكن قد انقضى من أجازة زوجي إلا نصفها، حين فاجأنا بأنه سيضطر للسفر والعودة إلى كفيله، الذي يرغب منه في أن يحل أزمة طارئة في الشركة، على أن يمنحه بعد انتهائها أيام أجازة إضافية، ولأنه ـ كما ظننت ـ لاحظ ضيق ابنه مما جرى بيننا، فقد أقسم له أنه سيبدأ في اتخاذ إجراءات التقديم له في الجامعة الأمريكية فور عودته من سفره القصير، لأسعد بفرحة ابني وتحمسه لذلك التغيير الكبير في حياته.

جاءني زوجي قبل ساعات من سفره، بحقيبة جلدية صغيرة ملأى عن آخرها برُزَمٍ من الدولارات، وقال لي إنه لن يأتمن أحداً غيري عليها، وأن الوقت لم يسعفه لإيداعها في البنك قبل سفره، والآن حين أفكر فيما جرى، أعتبر أن أذكى ما فعله ليلتها، كان طلبه الصفيق بأن أوقع على ورقة باستلام المبلغ، لأنه بتأثير ما جرى له في موضوع الشقة، أدرك أنه لو لم يفعل لكنت قد شككت فيه فوراً، ولأدركت أنه يحضر لمصيبة كبيرة، لكن طلبه كان يشبهه بالضبط، ولذلك لم أشك في دوافعه ونواياه.

بالطبع كان يمكن أن أرفض طلبه، لكنني كنت متأثرة بفرحة ابني بتغير موقف أبيه منه، فلم أتردد في التوقيع على ورقة الاستلام، فتأثر بذلك كثيراً، واحتضنني بحرارة ظننتها

صادقة، لأنني لم أعهدها منه من قبل، قائلاً لي إن مواجهتي معه والموقف الذي جرى بينه وبين أخي، تسببا في صدمة أفاقته على حقائق كثيرة في حياته، وجعلته يفكر في كثير من الأخطاء التي كان يرتكبها بحسن نية، وأنني ربما كنت أستحق بعض اللوم لأنني لم أكن أواجهه بأخطائه من قبل، فجعله ذلك يظن أنني راضية وسعيدة ولا ينقصني شيئ، وأنني لا يجب أن أكرر ذلك الخطأ ثانية، بل علي أن أصارحه أولاً بأول، لكي لا يواصل الشيطان الدخول بيننا، ثم وعدني أنه سيبذل كل مجهوده بعد عودته، لكي يغيّر كل شيء في حياتنا، وأنه سيبدأ التغيير برحلة طويلة إلى مارينا التي كانت وقتها اكتشافاً جديداً لا يناله إلا المحظوظون، وكان من بينهم صديق قديم له، يمتلك فيلا فيها قال إنه سيتركها لنا عدة ليالي، وحين أفكر الآن فيما قاله تلك الليلة، لا ألوم نفسي لأنني صدقته، لأن أي أحد في مطرحي لم يكن سيصدق أنه يمتلك كل تلك القدرات التمثيلية المعجزة، ولذلك لم أكن أملك سوى أن أصدقه، لأنني بصراحة كنت أرغب في أن أصدقه.

حين ضمّنا الفراش ليلتها، لم أفهم لماذا تركته يفعل بي ومعي ما كنت أتأفف منه من قبل، لأفهم خطئاً بعدها سر ابتسامة الظفر التي ارتسمت على وجهه حين راح في النوم، خاصة أن أداءه معي لم يكن فيه كالعادة ما يدعو للإحساس

بالظفر. من السهل أن أتهم نفسي الآن بالبلاهة، لأنني أخذت أحلم طيلة الليل وحتى ودعته قبل ذهابه إلى المطار، بحياة أقل نكداً وأكثر استقراراً، فلم يكن مثل ذلك الحلم أمراً طارئاً علي، بل كان منهج حياتي منذ وعيت عليها، وحين تلومني نفسي أحياناً لأنني كنت دائماً أرضى بأقل القليل من المتاح، كنت أذكّرها بأن ذلك لم يكن بدعة تخصني، بل كان «سِلو» حياة أمثالي من العاديين، الذين لا يمتلكون مميزات أو مهارات تدفعهم لرفض المتاح وطلب الأفضل، وإذا كانت عبارة: «طيب بصي لنفسك في المراية قبل ما تتكلمي»، قد ظلت لسنوات لسان حال أمي أقرب الناس إليّ ـ وقد كانت صيغتها على أية حال أكثر لطفاً من الصيغ التي استخدمها أبي وأخي بدل المرّة ألف مرّة ـ فكيف ألوم على الغرباء حين يفترضون بمجرد النظر إلى وجهي، أنني لا أستحق سوى الرضا بالمتاح قبل أن «يزول من وشّي».

لذلك ولذلك كله، كان من الطبيعي أن أفرح في اليوم التالي، بقدوم السائق الذي يتعامل معه زوجي باستمرار، وهو يحمل ما لذ وطاب من الفواكه والمكسرات واللحوم والحلويات، التي قال إن زوجي أعطاه ثمنها فور وصوله إلى المطار، وأوصاه بتوصيلها إلى البيت في أسرع وقت. استأذنني السائق في الدخول إلى الحمام لفك حصرته، فأرشدته إلى طريقه، وذهبت إلى المطبخ لوضع اللحمة في

الفريزر. كان ابني قد ذهب إلى تدريب التايكوندو في النادي القريب، ولذلك تصورت أن مشكلة قد حدثت له هناك، فجعلته يعود إلى البيت عصبياً، يقوم بالخبط والترزبع على الباب بذلك الشكل المجنون، وحين فتحت الباب وأنا أتوعده بالتأديب، فوجئت بأمين شرطة وأكثر من عسكري يقتحمون الشقة بغباوة، ومن خلفهم ضابط متحمس يشهر في وجهي إذن نيابة بتفتيش الشقة.

ولأن خيالي كان ابناً مخلصاً للأفلام العربية، فقد فكرت على الفور في الحقيبة الجلدية المستقرة في درج الدولاب الذي خبأت مفتاحه خلف السخان، لأتوقع أنها كانت مليئة بدولارات مزورة دسها لي اللعين قبل سفره ليقوم بتوريطي في مصيبة انتقاماً مني ومن أخي، ولم يكن ممكناً أن أتوقع ما هو أكثر شراً ووساخة من ذلك، يعني بذمتك كيف كان يمكن أن أتوقع أنني حين أندفع إلى غرفة النوم خلف العساكر، سأجد السائق وقد نام في سريري عارياً ملط، وأنه حين يخرجه العساكر من سريري ملفوفاً بالملاية، سيندفع لضربي بالقلم وهو يصرخ فيّ بعزم ما فيه وبكل ما تتخيله من اللعنات والدعوات، لأنني فتنته وأغويته ودفعته لخيانة الرجل الذي وثق فيه وائتمنه على بيته.

حين فارقني ذهولي وهجمت عليه لكي أخرس صوته

اللعين، فوجئت بعسكري يجذبني من ملابسي بعنف، كان كافياً لتمزيق النصف الأعلى من ملابسي، لأجد نفسي أنا الأخرى ملفوفة بملاية أخرى، ويكون نصيبي بعدها سيلاً من الصفعات والركلات، حين حاولت مقاومة العساكر الذين حاولوا اصطحابي مع السائق خارج الشقة، وحين حاول أجدع جيراني الاعتراض على ما يحدث لي من معاملة مهينة، كانت دحرجته على السلم بعد أن دفعه الضابط بعنف، كافية لأن يسكت الباقون ويكتفوا بمراقبتي وأنا أُجرّ على السلالم بصحبة العساكر، مذهولة مما يحدث لي، ذاهلة عن كل ما حولي، لا أسمع إلا أصداء قادمة من بعيد لصوت السائق الذي ظل يواصل لعني لأنني أغويته وجعلته يخون العيش والملح، ويدنس شرف الرجل الطاهر الذي ضيع عمره في الخليج من أجلي أنا وابني، وكأنني فقط حين سمعته يقول ذلك، تذكرت أن لي ابناً وأسرة، فأخذت أصرخ في جيراني، أطالبهم بالاتصال بأبي وأخي، وأتوسل إليهم أن يأخذوا بالهم من ابني، ويطمئنوه أن هناك سوء فهم سيزول في أسرع وقت ممكن.

بالطبع، لم يكن ما حدث سوء فهم، بل كان مؤامرة مدبرة بإحكام، لم أعرف طبعاً المبلغ الذي حصل عليه السائق من زوجي، لكي يلعب دور شريك الزنا الذي تعرض للغواية، لكنه بالقطع كان مبلغاً كبيراً جداً ليقنعه بتحمل مخاطرة الحبس

لمدة ستة أشهر على الأقل كما يقضي القانون، لأنه قرر الاعتراف بالتفصيل، في حين كنت سأنال حكماً بالحبس سنتين على الأقل، كما قال لي المحامي الذي نصحني ألا أكرر أمام النيابة اتهامي غير المنطقي لزوجي بتدبير ما حدث، لأن أول رد فعل له بعد رجوعه السريع فور علمه بما حدث، كان تقديم ورقة استلام حقيبة الدولارات التي وقّعت عليها، والتي أصبحت دليلاً على ثقته المطلقة في الخائنة التي لم تصُن عرضه، ليقول لي المحامي إن مواصلتي اتهامه بتدبير الواقعة، ستفسد المحاولات التي يبذلها أولاد الحلال لإقناعه بالتنازل عن القضية، وهو تنازل يكفي قانوناً لإسقاط أي حكم يصدر ضدي.

راح أبي فيها، لكنه كان محتاجاً قبل مقابلة وجه رب كريم، إلى أن يشفي غليله، ويزورني متحاملاً على مرضه، ليضربني بالقلم ويبصق في وجهي، ثم ينصرف دون أن يقول لي كلمة، وحين وصلني خبر موته، رفض أخي أن يسمح للمحامي بتقديم طلب بالسماح لي بحضور جنازته، ولم أكن أملك حق الاعتراض، فقد كان أخي برغم رفضه لزيارتي، هو الذي دفع للمحامي أتعابه كاملة، شريطة أن يبلغني بأنه لا يريد رؤية وجهي حين أخرج من القضية، ولم أكن في الحقيقة متفاجئة بموقف أبي أو أخي، ولا مهتمة بهما قدر اهتمامي برؤية ابني أو حتى معرفة أخباره التي انقطعت عني تماماً،

وللأسف، لا تقبيل يدي المحامي نفعني في ذلك، ولا حتى الوعود المغرية التي بذلتها لكل من صادفته يرتدي بدلة رسمية في النيابة أو الحجز أو السجن، إن هو ساعدني في الوصول إلى ابني أو سماع صوته، وكل ما أمكنني معرفته عن ابني، بعد أن أتيح لي الاتصال بأجدع جاراتي وأقربهن إليّ، أن والده اصطحبه معه، إلى أين لا أدري؟ بعد أن قام بتحميل سيارة نقل بحقائب وكراتين وبعض من الأثاث، ولم يسمح لأحد من الجيران بأن يتبادل معه كلمة، بما فيهم الذين حاولوا مواساته في مصيبته التي ابتلي بها وهي أنا.

حين أتذكر الآن وقائع مواجهتي أمام النيابة بشريكي المزعوم في الزنا، لا أستغرب أبداً نوبة الضحك الهستيري التي نزلت عليّ، فور أن رأيته يبكي بحرقة مذهلة، بعد أن وصف علامات في جسدي لا يعرفها إلا من رآها، وتحدث عن تاريخ من الغواية مارسته عليه فور أن بدأ العمل مع زوجي قبل سنوات، وأنه لم يكن يمكن أن «يبُصّ للي زيي» لولا الظروف الاقتصادية الصعبة التي حرمته من الحلال، وأجبرته على تلبية نداء الشيطان، لكنه مشكوراً لم يبخل علي بالشهادة أمام وكيل النيابة أنني «في السرير حاجة تانية»، وأن ما حرم الله منه وجهي، أكرمني به في جسدي وقدرتي على استثارة من يصاحبني، لينسى أنه يتحمل عناء معاشرتي.

لعلك لا تستغرب لو قلت لك أنني بعد مرور كل هذه السنين، لا أرغب في فهم شيء في حياتي، بقدر رغبتي في فهم سر إخلاص ذلك الرجل في أداء دوره، يعني، هل يُعقل أن المبلغ الذي حصل عليه كان مغرياً إلى ذلك الحد الذي دفعه لأن يؤدي دوره بكل ما أبداه من همة وانفعال، أم أنه كان في صباه وشبابه ممثلاً متميزاً لم تكتب له الظروف أن يشبع رغبته في التمثيل، وحين جاءته الفرصة أمسك فيها بيديه ودموعه وجوارحه، وهل كان يمكن أن يؤدي دوره بكل تلك البراعة، لو لم يكن زوجي قد ساعده بالفعل على التحضير لأدائه، فأقنعه مثلاً أنني أخونه مع غيره كلما سافر، وأنه لن يتمكن من إثبات خيانتي، ولذلك يحتاج إلى مساعدته لإنقاذ ابني المسكين من العيش في كنف خاطئة لعينة مثلي، أم أن المسألة برمتها عبثية، لا يوجد خلفها منطق من أي نوع، ليس وراءها سوى الشر المحض، الذي كنت أقرأ عنه في الروايات وأشاهده في الأفلام، فأظنه خيالاً عقيماً، لو وجد المؤلفون من يتصدى له بالسخرية والتسفيه على أوسع نطاق، لما كرروا الحكي عنه بذلك الإصرار الغريب.

بعد أسبوعين من رحيل أبي، تحول زوجي في أنظار الكثيرين حولنا، من زوج مخدوع يستحق الشفقة ويُلام من البعض لأنه لم يغسل شرفه بالدم، إلى قديس يستحق

التكريم في نظر البعض وديوث لا يعرف معنى الشرف في نظر البعض الآخر. حدث ذلك بعد أن وافق على التنازل عن القضية، ولكي تنطبق عليّ الشروط القانونية للخروج من القضية، وافق على تأجيل تطليقه لي إلى ما بعد انتهاء إجراءات الإفراج عني بشهور، شريطة أن أتنازل له عن شقة الزوجية وكافة حقوقي المادية، بما فيها مؤخر الصداق الذي كان رقماً كبيراً وافق عليه، مثلما وافق على كتابة شقة الزوجية باسمي، حين كان طمعاناً في مال أبي، ولم يكن لدي مانع في أن أتنازل عن ذلك كله، لأنني لم أكن أريد شيئاً يذكرني به، وكان أصعب ما عانيته هو اضطراري للتنازل عن شقة أمي بحدائق القبة، التي ظل طمعاناً فيها باستماتة، بل وكانت كما فهمت من المحامي، أهم عنده حتى من شقة الزوجية، لكنني في الوقت نفسه، رفضت باستماتة أن أوقع على ورقة بها ما يفيد تنازلي عن حقي في رؤية ابني، مع أن المحامي حاول إقناعي بتوقيعها، لأن ما يفصل ابني عن بلوغ سن الرشد سنتان فقط سيكون من حقه بعدها أن يراني وقت ما يشاء.

حين قلت للمحامي إنني لن أوقع على الورقة، حتى لو كانت تقضي بحرماني من رؤية ابني لساعات أو حتى دقائق، هبّ في غاضباً واتهمني بالانفصال عن الواقع، الذي يؤكد أنني على وشك أن أكون مدانة بصفة نهائية في قضية مخلة

بالشرف، وهو ما سيدفع ثمنه ابني حين يكبر، فيتقدم إلى وظيفة مهمة، أو يناسب عائلة محترمة، وأن من مصلحتي لملمة الحكاية قبل إحالتها إلى القضاء، الذي لن أستطيع في حالتي إثبات براءتي أمامه، خاصة أن كل محاولات ترغيب السائق أو ترهيبه كانت قد فشلت خلال الفترة الماضية فشلاً ذريعاً، مضيفاً أن ما أتصور أنه حب جارف لابني، ليس سوى أنانية ستدمره وستدمرني معه، وفي حركة يائسة أستغربها الآن، قلت إنني سأوافق على الإقرار بحرماني من رؤية ابني، لكنني لن أتنازل عن الشقة التي تركتها لي أمي، إلا لو كتبتها باسم ابني، ولكن بشرط أن يسمح لي أبوه برؤيته لمرة وحيدة، خلال مشوار الشهر العقاري، لأنني لو أتيح لي أن أضمّه وأنظر في عينيه وأخبره ببراءتي، حتى لو لم يصدقني، سأكون مستعدة بعدها للموت.

لم أكن أتوقع أن مجرد طلب ذلك سيجعل زوجي يتنازل عن طمعه في شقة أمي، التي لم تكن مغرية له من الناحية المادية، بقدر ما كانت تمثل فرصة للإمعان في إذلالي، قبل أن يتضح لي أن تنازله عن الاستحواذ عليها هي أيضاً، لم يكن بسبب استقتالي في ربط ذلك برؤية ابني، بل لأنه وجد من ينافسه في طمعه، إذ كان أخي كما علمت، قد رفع عن طريق نفس المحامي قضية لمنعي من التصرف في ملكية الشقة، ولم يكن أمامي سوى أن أصدق المحامي، حين قال

لي إن أخي فعل ذلك، ليس طمعاً في اغتصاب حقي في الشقة، لأنه رفض عرض المحامي عليه بأن يقنعني بالتنازل له عن الشقة، لكي لا يستفيد منها زوجي، وقال له إن زوجي سيخاف من مواجهته قضائياً، وسيترك شقة أمي في حالها، مضيفاً أنه سيستغل الدعوى التي رفعها في الضغط على زوجي لإنهاء القضية، لكي أخرج منها في أسرع وقت ممكن، وهو ما اكتشفت صحته حين خرجت، لكن ذلك للأسف لم يكن آخر اكتشافاتي ولا ألعنها.

(٣)

لم أصدِّق حين رأيت أخي بنفسه، يقف في استقبالي، حين خرجت من قسم الشرطة بعد إنهاء إجراءات الإفراج عني. لم يكن من الممكن أن ألومه، لأنه لم يستجب لمحاولتي احتضانه، ولم يقبل حتى أن يمد يده لمصافحتي، فقد تسببت له في مشاكل لم يعهدها من قبل، ومع ذلك كثّر ألف خيره، لأن الأخوة لم تَهُن عليه، فجاء لاستقبالي، بل وأصر على أن أعود للإقامة إلى بيت أبي الذي ظل مقيماً فيه لوحده منذ وفاة والدنا.

يعني، لعلك أصبحت من سياق حكايتي، تتوقع أن تلك «المِجيّة» لم تكن لوجه الله والأخوّة، وتعرف أيضاً أنني لم أكتشف ذلك من أول لحظة، وأنني كعادتي تأثرت بتلك

الحركة ولم أتوقع على الفور ما وراءها، لكن ماذا أقول؟ هل أنا معذورة لأن التمثيلية يتم حبكها كل مرة بتفصيلة غير متوقعة تجعلني أصدقها؟ يعني ربما لو كان أخي قد احتضنني فور أن رآني، أو سلم عليّ بحفاوة، وعاملني كأن شيئاً لم يكن، لشممت ما وراء الحكاية وشككت في أمره، أما أن يجمع لمدة أسبوع كامل بين تلبية طلباتي واحتياجاتي، وعدم الحديث معي أو الحفاوة بي، فهذا ما جعلني لا أشك في شيئ وأتصور أنه قرر استقبالي واستضافتي، بدلاً من أن يسمح لي بالذهاب إلى شقة حدائق القبة مثلاً، ربما رغبة منه في لمّ فضائحي، وإبعاد ألسنة الأقارب والجيران عنه قبل أن يبعدها عني.

طيب، هل تتصور أنه ظل طيلة الأسبوع الكامل يبلغني بكل ما يريد قوله عن طريق المحامي، حتى حين أقابله في الشقة فور عودته من العمل، لأوجه إليه أسئلة لا بد من الإجابة عليها، لم يكن يرد عليّ أبداً بل كان يتصل بالمحامي ويبلغه ردوده على أسئلتي، التي كان من أهمها: حتى متى سأستمر محبوسة في البيت؟ وهل صحيح أنه طلب من الشغّالة التي كانت تلازمني ليل نهار أن تمنعني من الخروج من البيت بأي شكل؟ وهل لهذا اختارها ضخمة الجسد شرسة الطباع؟ وهل يعقل أن يسمح لها بتهديدي باستدعاء البواب لتكتيفي ورميي في غرفتي إن لزم الأمر؟ وهل يظن

أنني سأسكت على معاملة مثل هذه؟ هل يتوقع أني سأظل متمسكة بالحياة حين أحرم من ابني ثم من احترام أخي الذي لم يعد لي غيره في الدنيا؟ وإذا كان خائفاً إلى هذه الدرجة من الفضائح، فلماذا لا يخاف من عواقب معاملة منحطة كهذه، يمكن أن تدفعني لرمي نفسي من البلكونة، أو التوليع في نفسي وفي الشغالة؟ وإذا كان يكرهني إلى هذه الدرجة، فلماذا لا يسمح لي بمفارقته، لأعيش في الشقة التي تركتها لي أمي، وأعود إلى عملي فور أن تتحسن نفسيتي، وأعده أنه لن يسمع مني بعدها شيئاً لا بالطيب ولا بالرَّدي؟

كنت متأكدة إن التلويح بمسألة الانتحار هي وحدها ما ستجبر أخي على الحديث معي، بفعل الخوف من فضائح قد تطرطش على سمعته كرجل أعمال واعد، لكنني كنت كالعادة واهمة، صحيح أنه كلمني ولأول مرة حين عاد إلى الشقة بعد أن أبلغه المحامي بتهديدي بالانتحار، لكنه لم يرم علي حتى السلام، بل بدأ كلامه قائلاً: «بتهددديني إنك ترمي نفسك.. طيب وماله، ياريت تبقي قد كلامك»، ليأخذني بكل برود من يدي إلى البلكونة التي سبق أن تدلّى منها أبي في عز شيبته، ثم صوّب نظراته الميتة نحو عينيّ مضيفاً بكل ما في الدنيا من جفاء وغلظة: «هه تحبي ترمي نفسك ولا عايزة مساعدة؟». ظللت ذاهلة عن ما حولي للحظات، قبل أن أقرر التماسك وأقول له بهدوء منكسر إنني لست راغبة في أي

فضائح ولا مشاكل، كما لم أعد راغبة في أي مساعدة أو مساندة، ولو حتى في مسألة رؤية ابني، وأنني لا أطلب إلا حقي في العودة إلى شقتي والاستقرار فيها حتى يلتمّ شملي على ابني أو أموت.

لم أفهم الضحكة التي بدرت منه وقتها، لم أربطها بنظرات الاحتقار التي طفحت في عينيه، وكأنه كان يريد أن يقول لي: «يا نهار اسود، لا أصدق أنكِ غبية إلى هذا الحد، يعني كنت أظن أنكِ تعلمتِ شيئاً من كل ما جرى للكِ، لكنكِ مصممة على إبهاري بغبائك»، لكنه بدلاً من قول ذلك قرر أن يدخل في المفيد ويقول لي بجدية مدهشة: «وهي فين شقتك دي؟ انتي مش اتنازلتي عنها عشان أخرجك؟ ولا كنتي فاكرة إن جوزك هيطلعك من القضية من غير ما حد يوقف قصاده؟ هو انتي عبيطة ولا بتستعبطي؟»، ليتلاشى صوته شيئاً فشيئاً، فلا أسمع إلا تهويمات عن أوراق تنازل قمت بالتوقيع ليها بشكل قانوني في حضور مأمور سجن الاستئناف الذي كنت محجوزة فيه على ذمة القضية، وتوكيل رسمي بالبيع قمت بعمله له في حضور موظف اتضح أنه مندوب الشهر العقاري الذي جاء إلى السجن بأمر النيابة، وحيطان يمكن أن أخبط دماغي فيها، وماء بحر يمكن أن أشربه، وخيل يمكن أن أركب أعلى ما فيها، إن لم يعجبني الكلام، لكني وحياة ربنا، لم أكن راغبة في فعل أي شيئ ما قاله، فقد كانت الفكرة

الأوضح والأصفى وسط كل ما كان يحيطني من تهويمات وأصداء، هو أن أرمي نفسي طواعية وفعلاً من الدور الثامن لأرتاح، وهو ما حاولت فعله، وأنا متأكدة أنه لن يمنعني من ذلك، بل إنني فكرت للحظة أنه لم يختر البلكونة لتكون مكاناً لمصارحتي بتلك الخديعة، إلا لكي يشجعني على الخلاص، خلاصه مني، لكنني كنت مخطئة كالعادة.

حين فوجئت بمقاومته الشرسة لمحاولتي القفز من البلكونة، لم أستسلم له ولم أتوقف ولو حتى لمحاولة فهم دوافعه للإبقاء على حياتي، بل عضضت كفيه وذراعيه، خربشت وجهه، شددت شعره، حاولت رفسه، لم أترك شيئاً إلا وفعلته لكي يُخلّي بيني وبين فضاء الشارع، لكنه لم يفعل، وحين خاب أملي في التملص منه، أخذت أصرخ بكل ما أوتيت من غضب وألم وعجز، وأنا أسب وألعن العيون التي امتلأت بها البلكونات والشبابيك، والتي لم يظهر على الوجوه التي تحملها، أي رغبة في مساعدتي على الموت، ولذلك قررت أن أتوقف عن السب وألجأ إلى الله أدعوه أن يساعدني على الموت، وأن يعجل لي بالخلاص، وحين فقدت الوعي ظننت أن دعواتي قد استجيبت بسرعة لأن الله كان يعلم بحالي، لكنني كنت مخطئة كالعادة.

لست متأكدة الآن ما إذا كان أخي قد توقع منذ البداية رد

فعلي، لذلك خرج بي إلى البلكونة، لكي يكون لديه فيها بدل الشاهد عشرة وعشرون، يقسمون بكل يقين أنه أنقذ حياتي بكل شهامة، برغم كل ما ألحقته به من أذى، لتساعده تلك الشهادات المتحمسة على رميي في مستشفى الأمراض العقلية، التي دخلتها في البدء بدعوى إسعافي من صدمة عصبية حادة أفقدتني الوعي، وأثرت على استقراري النفسي بعد كل ما مررت به من أزمات مع زوجي وبسبب غياب ابني عني، وهو ما أحدث لديّ ضلالات وهلاوس بعد ذلك، فصرت أتهم أخي ومحاميه بالتزوير في أوراق رسمية للاستيلاء على ما لم أعد أملكه بالقانون، ولذلك بات من المهم طبقاً للأطباء الذي لا أعلم إن كانوا متواطئين أم صادقين، أن تتم السيطرة على رغباتي الانتحارية، ويتم الحذر من استعدادي لإيذاء نفسي، بأن أبقى تحت رعاية طبية، تعهد أخي بأن يتحمل تكاليفها أياً كانت، لأنه لن يتخلى عن أخته، لحمه ودمه، مهما أساءت إليه، وأنه كما وقف إلى جوارها في محنتها مع زوجها، سيقف إلى جوارها في ما ابتلي به عقلها وأعصابها، طالباً الأجر والثواب من الله وحده.

أعرف ما تفكر فيه الآن وما ترغب في السؤال عنه، فقد تعود الناس حين يسمعون من فلان أو علان أنه دخل السجن أو مستشفى الأمراض العقلية أو حتى العناية المركزة، أن يسألوه على الفور: كم ظل فيها ومتى خرج؟، لأنهم يعرفون

أن كل الليالي والأيام في تلك الأماكن متشابهة في وحشتها ورتابتها وثقلها على القلب، ولأنهم لا يرغبون في سماع المزيد من التفاصيل المليئة بالنكد والأسى، خصوصاً في قصة مثل قصتي، لم تخل من تلك التفاصيل منذ بدايتها، وبصراحة، كان سيسعدني كثيراً أن أحكي لك تفاصيل التفاصيل فيما يخص إقامتي في المستشفى أو المورستان أو العباسية أو السراية الصفرا أو سراية المجانين أو أياً كان اسمها، على الأقل لكي أحظى براحة الفضفضة، وأواصل التخفف من عناء ما أحمله بداخلي، لكني للأسف لا أذكر الكثير من تلك التفاصيل، ليس فقط بسبب الحجم المهول مما أخذته من مهدئات ومثبطات ومسكنات ومنومات، ولكن ربما لأن جسدي وذاكرتي ووجداني اتفقوا على أن يحاربوا كل ما جرى لي بالإصرار على النسيان.

كما قلت لك سابقاً، كان لي علاقة مبكرة بالمرض منذ كنت طفلة، لكني لم آخذ في حياتي كلها أقراصاً وحقناً كالتي أخذتها في الأسابيع الأولى التي أقمتها في المستشفى، والتي لم أعد أذكر كم كان عددها بالضبط، لكني متأكدة أنها لم تكن أكثر من ثلاثة أسابيع، أو ربما خمسة، يعني لن تصل أبداً إلى ستة أو سبعة، وما أذكره جيداً أنني بعد فترة قصيرة من دخولي إلى المستشفى، فقدت رغبتي في الصراخ والعويل، بل وفقدت قدرتي على البكاء، وأصبحت أجد لذتي

في التكوم في الركن كأنني «فسيخة»، أتعامل مع كل ما يقال لي بلا مبالاة، وأستقر حيث أوضَع، وحتى حين قرروا وضعي في جناح مليئ بنزيلات أخريات، لمراقبة قدرتي على التواصل، لم يتواصل مع كل من حولي سوى أذناي، اللتين أصبحت أجد لذتي الوحيدة في «طرطقتهما»، ليسمعا كل ما يدور حولي من خناقات وحكايات، ويصنعا لصاحباتها اللواتي لا تدخل وجوههن مجال رؤيتي، وجوهاً خاصة متخيلة أتفنن في صنع تفاصيلها، ليبقى لعينيّ وظائف تنحصر في رؤية ما آكله وأشربه وأبلبعه من أقراص أو بمعنى أصح ما أتظاهر بـ «بَلبَعَتِه» من أقراص، ثم رؤية طريقي نحو الحمام أو حديقة التمشية أو غرفة الكشف أو السرير، ولا تتصور كم أبهرتني تلك القدرة التي لم أكتشفها من قبل على التحكم في وظائف العينين والأذنين، والتي لولاها لما تمكنت من تحويل إقامتي في المستشفى، إلى فترة راحة أعدت فيها تأمل حياتي وتحليلها ومحاولة فهمها، وبالطبع لم أفهم كل شيئ على الوجه الأكمل، لكنني على الأقل استمتعت بالمحاولة التي أشعرتني بأنني لا زلت على قيد الحياة.

ربما كان أكثر ما استفدته من تلك الفترة التي عشتها بأذنيّ، أنني أدركت أخيراً أنني إنسانة عادية، إذا قارنت حالي بأحوال غيري ممن أصبح يريحهم أن يفضفضوا، ويشتكوا

إلى مخلوق صامت لا يفصل رغبتهم في الحكي بسؤال أو تعليق أو إيماءة، ولذلك اكتسبت في وقت قصير سمعة حائط المبكى في المستشفى كله، وهي سمعة أضيفت إليها أساطير عن ملامح وجهي التي تدفع الإنسان ليحكي كل ما يخفيه، وعن طاقة النور التي تشع مني حين أستمع إلى الحزانى والمقهورين، وعن ذبذبات التعاطف والطمأنة التي تخرج مني وأنا أنصت إلى ما أسمعه من حكايات تختلط فيها كل تنويعات الظلم والقهر التي تخطر على بالك والتي لا تخطر عليه، والتي لم يكن لمن هو مثلي أن يبادر إلى التشكك فيها، بعد كل ما عشته وشفته، ليس لأني لا أملك أسئلة ترغب في أن تدقق في بعض التفاصيل أو تستغربها أو تكشف تناقضها ومبالغتها، ولكن لأني لم أكن أمتلك الطاقة لفعل ذلك في البداية، وحين استعدت طاقتي بعد توقفي السري عن تناول الأدوية، لم أعد أمتلك الرغبة في تدقيق ما أسمعه أو التشكيك فيه، وأصبحت أؤمن أن من حق كل إنسان أن يمتلك روايته الخاصة عما جرى له، دون أن يناقشه فيها أحد، وأن ما يضيّعنا كبشر هو أن لدينا من المحققين والمتشككين والمتثبتين، أكثر مما لدينا من المنصتين والمتعاطفين.

مع كثرة ما كنت أسمعه عن «طاقة النور» في وجهي، وجدت نفسي مشتاقة إلى رؤية تلك الطاقة في وجهي الذي

لم يربطه أحد بالنور من قبل، بل ولم يعتبره أحد منذ وعيت على الدنيا وجهاً مريحاً أو يطيب النظر إليه. لم يكن في حماماتنا مرايا لكي لا نؤذي بها أنفسنا، وكان لا بد أن تطلب من الممرضة أن تحضر لك المرآة وتمسكها حين نرغب في استخدامها في تمشيط شعرنا بعد الاستحمام، وحين نظرت إلى وجهي في أكثر من مرآة بحثاً عن النور والراحة والرضا، لم أجد في كل مرة إلا وجهاً خاوياً فارغاً كصفحة بيضاء، وجهاً لم يعد فيه حتى ما كان يميزه من حزن وتعاسة و»شقى»، وربما لذلك ظنه حسنو النية وجهاً منيراً مريحاً، تماماً كما يتوهم الناس أن وجوه موتاهم تنير وتبتسم بعد موتها، لكنني لكي أصدقك القول، أصبحت بعد فترة قصيرة من الزمن أتوهم مثلهم ما زعموه من مميزات لوجهي، وأصبحت لأول مرة في حياتي أحب إطالة النظر إليه، لا معجبة ولا راضية بل متأملة ومستغرقة في النظر الذي لا هدف له سوى إطالة النظر إلى ما لم أكن أطيل إليه النظر من قبل.

لم أكن أتوقع أن سمعتي المتنامية تلك هي التي ستعجل بخروجي من المستشفى، بعد أن ظننت أنني مقيمة فيه إلى أن أموت، خاصة وأنني لم يكن لدي كما يحدث في أفلام السينما، حبيب أو قريب يناضل من أجل إخراجي من غياهب المستشفى، وحتى ابني الذي لا أتصور أن بقائي في

مستشفى المجانين، يمكن أن يسره برغم كل ما سمعه منهم عني وعن أخلاقي، لم يكن أصلاً يعلم بوجودي فيه، لذلك لم يكن أمتلك حتى رفاهية الانتظار والترقب، لأقضي كل لياليّ في النوم والتأمل، وكل أيامي في إنصات لا يقطعه سوى الأكل والصلاة والتريض والكشف الروتيني الذي كنت أتمسك فيه بالصمت كإجابة وحيدة على كل الأسئلة، خاصة وقد أصبحت أتعامل مع كل الدكاترة والممرضات على أنهم مشترون بالمال من أخي وأمثاله، وإلا لما سمحوا لكل ما سمعته من قصص الظلم والقهر وتزوير التقارير الطبية أن تقع، وحتى لو كان نصف ما سمعته أو ثلاثة أرباعه مبالغاً فيه أو مكذوباً، لكان الباقي سبباً كافياً لكي لا أثق في كل ما له علاقة بإدارة المستشفى، ولذلك لم أكن أتصور أن الله الرحمن الرحيم سيرزقني بمشرف جديد ابن حلال، يرى أنني سليمة عقلياً ومستقرة نفسياً وعصبياً، وأن صمتي المستمر لا يبرر بقائي في المستشفى، لأنه مفهوم ومرتبط بأزمتي مع زوجي السابق وحرماني من ابني وخلافي مع أخي، وأنني لا أستحق أن أبقى في المستشفى يوماً واحداً، وحين فشل المستشفى في التواصل مع أخي هاتفياً وبريدياً، أصبح من حقي الخروج من المستشفى بمفردي، خاصة وأنني لم أكن لأشكل خطراً على أحد.

لن أقول لك إنني لم أقلق ولم أضطرب، حين أصبحت

مواجهة من جديد بالعودة إلى الحياة المخيفة خارج المستشفى، ولن أنكر أنني لمت نفسي للحظة، لأنني توقفت عن بلبعة الأقراص، واندمجت في دور المستكينة الهادئة، فلو كنت قد اصطنعت خناقات من حين لآخر، لاستمر بقائي في المستشفى التي لو كان ابني معي فيها، لما خرجت منها إلى أن أموت، فقد عرفت فيها من زملائي حناناً لم أشهده من قبل، لكن ابني لم يكن معي في المستشفى، ولذلك كان يجب أن أخرج لأبحث عنه وأستعيده.

لم يكن لدي خطة للمستقبل، لكن منذ متى كنت أخطط لمستقبلي؟ ولم أكن في الوقت نفسه راغبة في المزيد من المواجهات والمعارك مع أخي، ليس لأنني استحليت دور الهادئة الوادعة الذي عشته في المستشفى، بل لأنني كنت طيلة حياتي بعيدة عن المواجهات والمعارك، متعايشة مع الأذى والضيق، ولم أعرف في حياتي ألماً كالذي عرفته حين حاولت أن أرفض الأذى، ولو حتى بالصراخ والعويل ومحاولة الانتحار. لذلك قررت ألا أبدأ رحلة البحث عن ابني بعد خروجي من المستشفى مباشرة، وأن آخذ فترة هدنة أعيد فيها التفكير في كل شيئ.

لم أكن قد سافرت منذ زمن بعيد إلى الإسكندرية التي لم أكن أعرف مصيفاً ولا مهرباً غيرها، ولم أكن أمتلك مالاً

يعينني على السفر إليها، ولا من أثق في اللجوء إليه للاقتراض، دون أن يسعى لتحذير أخي من تبعات خروجي، أو أن يقلق هو نفسه من لجوئي إليه. كنت محتاجة لكي أنفذ ما فكرت فيه، إلى بعض الأوراق الشخصية ومفتاح لخزنة في بنك، كنت قد وضعت فيها في لحظة قلق من زوجي بعض مجوهراتي، وقد جاء وقتها الآن، لكن الوصول إلى شقة حدائق القبة حيث خبأت أوراقي ومفتاحي لم يكن بالساهل، وكان لا بد لي من أن أستعين فيه بصديق، ولأني لم أكن أمتلك أصدقاء أثق بهم، فقد لجأت إلى أعز صديقات أمي، التي أثبتت لي منذ أول لحظة أن محبتها لأمي رحمها الله كانت صادقة، وأن رهاني عليها كان صائباً.

كان وجود الحاجّة وابنها الأكبر معي، مهماً لإقناع جيراني في شقة حدائق القبة، لكي يساعدوني في الدخول إلى شقتي لدقائق، بعد أن حكيت لهم حقيقة ما جرى لي، معتمدة على الله الذي لولا فضله ورحمته، لما كان قد رآني أحد منهم إلا بوصفي العاهرة التي خانت زوجها وخوّنت أخاها وضيعت ابنها ونفسها. تفاءلت بعض الشيئ حين قال لي الجيران إن في شيئاً لله، لأن كل محاولات أخي لبيع الشقة فشلت بعد أن رفض أبو ابني أن يستسلم لتهديدات أخي، وأنه قام بالطعن في تملك أخي للشقة، وحصل على قرار من النيابة بإيقاف التصرف في الشقة، إلا بعد أن يتم الفصل في

مصيرها قضائياً، ليتم تشميعها بالشمع الأحمر بقرار من النيابة، بعد أن شهدت معركة طاحنة شارك فيها عدد من البلطجية الذين لم يبخل أخي ولا طليقي في تلبية مطالبهما، ولولا أن سكان العمارة لم يعجبهم ما جرى وتصدوا له وأبلغوا البوليس عنه لانتهى الأمر بوضع أحدهما يده على الشقة دون الآخر.

حين دخلت إلى الشقة أعدت تشغيل خاصية النظر الانتقائي، لكي لا أنهار حين أتذكر أمي التي لم أر حنيّة في حياتي إلا منها، ومن رفيقات المستشفى ومن صديقة عمرها، التي حلفتني بالله أن أبقى لديها ما شئت، ولم تتركني أذهب إلى الإسكندرية، إلا بعد أن أقسمت لها أنني سأعود إليها حين تنتهي فترة نقاهتي التي لم أكن قد وضعت لها مدة محددة، في حين تعهد ابنها الأكبر الذي كان يصغرني بعدة سنوات أنه سيستعين بضابط من أعز أصدقائه، ليعرف أين يوجد أخي بالضبط، وهل غيّر مقر إقامته أم أنه كان فقط يتعمد عدم الرد على المستشفى، وهل عاد طليقي إلى مصر، أم أنه لا زال خارجها مع ابني، ومع أنني كنت أشكره بتأثر صادق وأتمنى أن يوفقه الله في مساعيه، إلا أنني كنت في داخلي أوطّن نفسي على ألا أنتظر نتيجة لكل ما وعد به، كبداية لخطوات التغيير التي تعهدت أن ألزم نفسي بها، بعد أن تصالحت مع حقيقة أنني لن أكسب معركتي لاستعادة ابني

وحقي في شقة أمي، إلا حين أكسب معركتي مع نفسي أولاً.

لعلي بعد كل ما حكيته، أعرف أنه من غير المجدي أن أفترض أنك ستستغرب بعضه، أو ستصدقه كله، لأنك تعرف أن الدنيا حافلة بالمآسي والمهازل، لذلك لن أجد حرجاً في الاعتراف لك بأن النهاية السعيدة لقصتي جاءت أسرع مما كنت أتخيله، وأنني حين ذهبت إلى الإسكندرية وجدت راحة نفسي على شطها كما تعودت، فقررت أن أمد إقامتي فيها، وأنني تواصلت مع زميل عمل محترم، ليقوم بمساعدتي على إجراءات تسوية معاشي، بعد أن كنت قد قمت في فترة سجني بالتقديم على إجازة بدون مرتب، ساعدني في عملها المحامي النصاب، ثم قام شريكه أو رئيسه أخي بإجراءات تجديدها، ربما لكي لا يجدني في المستقبل عبئاً عليه.

بالطبع لم تكن تلك النهاية السعيدة التي قصدتها، فهي لم تحدث بسرعة، بل سبقها قرار مصيري بأن أغير مجال عملي، بعد أن تعرفت على سيدة جميلة في كافتيريا على البحر، قالت لي على سبيل المجاملة إن وجهي فيه طاقة نور مريحة، واستغربت حين ضحكت بعمق، وكانت تلك أول ضحكة أضحكها من قلبي، وبالطبع لم أحكِ لها كامل قصتي ولا أين سمعت لأول مرة حكاية طاقة النور هذه، بل اكتفيت بأن أحكي لها قصة خطف ابني مني وهرب أبيه به إلى

الخارج، لتبدأ بيننا بفعل التعاطف الأمومي صداقة، تعمّقت حين عاونتني على الالتحاق بعمل في كوافير كبير في أرقى أحياء الاسكندرية تملكه صديقة لها، بعد أن قلت لها أنني أمتلك مواهب مكبوتة في التجميل أحتاج إلى من يساعدني على اكتشافها، وقد كنت محقة فيما قلته، لأنني لم أحب عملاً في حياتي مثلما أحببت ذلك العمل الذي كان ينتظرني فيه مستقبل واعد، لكني لم أكمله، بعد أن دخل ابن صديقة أمي في حياتي، ليس كمصدر للمعلومات التي لم يكن فيها الجديد الذي ينبني عليه أي تغيير، بل كصديق تحول مع الإلحاح والإصرار إلى حبيب، مستعد للتضامن معي حتى أبعد مدى، وترك كل شيئ من أجلي، وهو ما لم تمانعه أمه التي فرحت أنه أخيراً تخلص من عقدة زيجتين فاشلتين سابقتين رأت أنه ظُلِم فيهما، وظنت أن الله سينصفنا ببعضنا، وأنني لن أكون مع ابنها محتاجة إلى أحد، لكنه مع ذلك سيساندني حتى أستعيد حقوقي من أخي وطليقي، وحتى تقر عيني برؤية ابني حين يفك الله أسر أبيه له.

لكن هل يعقل أن تكون تلك النهاية التي تنتهي بها قصتي؟ هل يعقل أن تتدفق على السعادة هكذا فجأة وبدون مقدمات؟ أليس من المنطقي أن أكتشف أن هناك سبباً خفياً لعيناً هو الذي جعل ابن صديقة أمي يقرر التعلق بي ومطاردتي حتى الإسكندرية، برغم كل ما يعرفه عما جرى

لي؟ أليس من الأوقع أن يكون قد عرف خلال رحلة بحثه مع صديقه الضابط أن هناك خيراً ما سينالني لسبب أو لآخر، فرأى أنه أولى بأن يشاركني فيه، خاصة بعد ما جرى له من تعثر مادي بعد طلاقيه المريرين؟

ألن يكون أكثر منطقية، أن أعترف لك بأنني اخترعت وجود ابن صديقة أمي من الأساس، لأنني لم أخرج أصلاً من المستشفى، ولا زلت قابعة فيه حتى الآن دون أن يسأل فيّ أحد؟ ولماذا أصلاً سيسأل في أحد، طالما ظل أخي مستمراً في فعل ما يلزم لإبقائي داخل أسوار المستشفى؟ طيب بلاش، بذمتك ألا يتسق أكثر مع مجمل حياتي لو حكيت لك كيف فوجئت ذات مرة بزيارة مفاجئة من السائق الذي شارك زوجي في تدبير ما جرى لي من اغتيال معنوي، ليقول لي وهو منهار في البكاء، إنه أصيب بمرض عضال، وأن أيامه في الدنيا لن تطول، ولذلك قرر أن يتطهر من خطيئته بالاعتراف لي بحقيقة ما شارك في فعله، وأن يصارحني مقسماً على المصحف بأن زوجي بكل وساخته، لم يكن الذي دبّر لي تلك المكيدة التي دمّرت حياتي، بل كان أخي هو الذي دبّرها بعقل شيطاني لعين ليستولي على كل ما أملك، وهل يمكن بعد هذا أن ألام إن استعجلت الموت لكي أتخلص من حياة كهذه؟ وهل يوجد ما يمكن أن يجعلني إنسانة عادية خالية من المآسي سوى الموت؟

سأترك لك الجواب.

شهيد التلفزيون!

توقف عن لوم أبيه حين أصبح أباً.

كان من قبل يضيق ذرعاً بإفراط أبيه في ذكر تضحياته من أجل أولاده بمناسبة وبدون مناسبة، ثم بتذكير أمهم الدائم لهم بتلك التضحيات بعد رحيل الأب المفاجئ. لم يكن يشرك أمه وإخوته في اعتقاده الغاضب بأن والدهم قد جنى عليهم بأحلامه العريضة وخطواته الانفعالية المتسرعة، التي قادته إلى تلك النهاية التي كان لوقت طويل يراها انتحارية، لكنه الآن لا يكف عن تذكر تلك التضحيات وتبجيلها، والحزن على تلك النهاية التي باتت تثير رهبته، منذ أن بدأ يكابد أهوال الحياة من أجل إطعام زوجته وولديه.

أنجب أبوه سبعة أبناء كان أكبرهم، لم يكن أبوه متعلماً، ولذلك حرص على أن يعلمهم جميعاً. سيرة التعليم وعلاقة أسرتهم به، كانت تستدعي على الدوام أطرف حكاية تمتلكها الأسرة في مخزونها العاطفي، وأكثر حكاية تتباهى بها على الملأ، وهي حكاية أن الأب قرر أن يكمل تعليمه الذي كان قد انقطع في طفولته، وأن يأخذ الشهادة الابتدائية في نفس السنة التي حصل ابنه الأكبر عليها، ثم يواصل تعليمه حتى الحصول على الشهادة الإعدادية، ليشارك أبناءه الأصغر بعد ذلك في دراسة مناهجهم، ويساعدهم فيها في الوقت ذاته،

متفوقاً عليهم في إدمان قراءة الصحف والمجلات وسلاسل الكتب، بكل ما يصحب ذلك الكفاح من مباهاة عليهم بما حصّله من معلومات، وتقطيم لكسلهم وزهدهم في المعرفة التي أتتهم مبكرة ودون تضحيات.

تخرّج من الأبناء اثنان بدبلومات هزيلة، لزوم تمشية الحال في الحياة الدنيا، وكان الثالث الأصغر سناً على وشك اللحاق بهما في نادي الشهادات المتوسطة، أو الشهادات «الهَفَأ» كما كان الأب يصفها في لحظات الغضب، في حين تخرّج أربعة بشهادات عالية، قبل أن يتضح أنها ليست عالية فعلاً، لأنها لم تجلب وظيفة ثابتة سوى للبنت الوسطى، التي تخرجت من كلية التربية وعملت مدرسة رياضيات لكنها لم تتزوج، وكَسرة نِفسها بسبب الزنّ على الآذان والكلام الذي يسمّ البدن، سدّت نِفسها عن أداء الدروس الخصوصية التي لا يعيش المدرس إلا بها، فرفضت كل ما كان يأتيها من عروض، واكتفت بالإخلاص لوظيفتها اليومية هزيلة العائد، والعودة إلى البيت للتقوقع فيه في غرفتها التي اشترت فيها تلفزيوناً صغيراً تنفرد فيه بالمسلسلات العربية والأفلام الأجنبية التي أدمنتها على عكس إخوتها، فزادت مباعدتها عن سائر أفراد البيت. أما أختها الكبرى التي تخرّجت من كلية الآداب في جامعة إقليمية «كتيانة»، لم تجد عملاً، لكنها وجدت العَدَل، وتزوجت بمدرس ثانوي غطى معشره الحلو على مظهره

«المِبَعجَر»، وأنجبت منه على التوالي ثلاثة أبناء، أضافوا إلى حياة الأسرة دراما منعشة بعد رتابة كئيبة لازمتها لسنوات.

كان الأب قد خرج على المعاش في خريف ٢٠٠٦ بعد أن بلغ سن الستين، ومعاشه الذي تجاوز الستمائة جنيه بقليل، كان كافياً للإنفاق على نفسه وزوجته وابنه الطالب وأخته الصغيرة المخطوبة، بعد أن فارقه الباقون وأصبح لهم بيوتهم ودنياهم، وتكفلت البنت الوسطى بمصاريفها مع مساعدة هزيلة في مصاريف البيت. وفي لحظة أمل غير محسوب، قرر الأب شراء قطعة أرض لأبنائه في أطراف مدينته الريفية الصغيرة، وقرّر أن يبدأ في بناء بيت عليها، على أمل أن ينفعهم بعد أن يموت، ولعلهم إن فشل في إكماله، يكملون بناءه يوماً ما، فيجمعهم بيت واحد بعد أن يتكل على الله.

وفي سبيل شراء الأرض وبناء الدور الأول من منزل الأحلام، طارت مكافأة نهاية الخدمة ولحقت بها تحويشة العمر الهزيلة، وذهبَ ذهبُ زوجته، مصحوباً بعشرة آلاف جنيه، كان قد استدانها من بعض الأصدقاء والأقارب وأضيف إلى كل ذلك ١٥ ألف جنيه أخذها سلفة من بنك ناصر، ليبقى له من معاشه بعد سداد قسط السلفة الشهري حوالي ٣٠٠ جنيه فقط، فيضطر في خطوة مزلزلة، للسماح لزوجته ذات الخمسة والخمسين عاماً بأن تخرج صباح كل

يوم، للعمل في محل ملابس في أحد أسواق المدينة الصغيرة، يملكه أحد أفراد عائلتها، لتساعده على الحياة، متحملة في ذلك كلام الناس وشماتة ذوي القربى، في حين اضطر لقبول وظيفة كاشير في مطعم مشويات، يملكه قريب له في مدينة طنطا القريبة، يذهب في الصباح إليها كأنه ذاهب إلى مهمة سرية، ويعود في آخر اليوم منهكاً، لا يعوض شقاءه سوى تشبثه بحلم تسديد ديونه، الذي استعان عليه ببركات السيد البدوي، آملاً في الانتقال بعدها إلى حلم آخر، هو بناء الدور الثاني إن عاش وكان له عمر.

في اللحظة غير المناسبة انهار الحُلمان، بفعل فضيحة كادت تودي بحياة زوج البنت الكبرى، الذي دخل في علاقة فاحشة مع تلميذة فائرة قبل الأوان، فأجبره أهلها الباطشون على الزواج بها ستراً على الجنين القادم، ولأن فلوس الدروس كانت قد بدأت تجري في يده، فقد عرض على زوجته البقاء مع ضُرّتها الجديدة إلى حين توفير منزل مستقل لها بعد تحسن الأحوال، لكنها لعنت خاش أهله، وهددته في لحظة غضب بقطع عضوه الذكري الذي لم يعد فعالاً منذ أنجبت له طفلهما الثالث، وهي مسألة لم تكن إثارتها جديدة، لولا أنها قررت أن تشاركها مع الجيران عبر البلكونة، فانهال عليها بضرب مبرح، تركت له البيت على إثرها آخذة عيالها معها، لتزاحم بهم إخوتها في بيت أبيها،

فأصبح الأحفاد كثيرو الحركة مصدر شقاء بعد أن كانوا منبع بهجة، وباتت مع أولادها مسئولة من أبيها، الذي رفض التذلل لطليقها، لكنه سمح لإخوتها بضربه علقة معتبرة، صوّرها الأخ الأصغر بالفيديو شفاءاً لغليل أخته.

تفاءل الأب خيراً حين أكرمه الله بزواج البنت الوسطى «المعصلجة» من زميل لها، أخذها بشنطة هدومها وسافرا إلى الخليج، كان ازدحام البيت ومشاركة أختها لها في غرفتها، قد أتلف أعصابها فسارعت باتخاذ القرار قبل أن تفقد ما تبقى من عقلها، وتجاوزت كل ما أبدته الأم من ملاحظات على عائلة العريس وصلعته ورائحة عَرَقه «المتفردة»، وبعد رحيلها لم يتبق للأب سوى هم المطلقة والمخطوبة والطالب آخر العنقود، بعد أن توقف بناء البيت، لتصبح خوازيقه الراشقة في الأرض كناية سافرة عن حاله الكرب، لم يكن يغضب حين يحولها ابنه الأكبر إلى مثار للدعابة في لحظات الصفاء النادرة التي تجمع العائلة.

ولأن المصائب لا تأتي فرادى، فقد اجتمعت عليه ثلاثة مصائب: أتعاب المحامي الذي وكّله للدفاع عن ابنته التي قدم طليقها الراغب في الانتقام بلاغاً فيها يتهمها بمحاولة إجهاض زوجته، والذي اقترح بدوره رفع قضية على الطليق للمطالبة بحقوق ابنته وأحفاده، للضغط على الطليق اللعين.

ومصاريف تجهيز المخطوبة التي حرّك زواج أختها غضب خطيبها وأهله، بسبب تأخره في الالتزام بما قطعه من مواعيد، فبدأوا يلوحون بفسخ الخطوبة إن لم يلتزم بوعوده. ومصاريف المعهد العالي للسياحة والفنادق الذي ألحق به ابنه في القاهرة والتي ارتفعت فجأة إلى ثلاثة آلاف جنيه، أصبح مطلوباً منه أن يدفع ألفين منها خلال أسبوع، وإلا تم وقف ابنه عن الدراسة تمهيداً لفصله.

ولأنه كان قد استنفد سُبُل السّلَف المتاحة في محيطه القريب، قرر في لحظة يأس أن يلجأ إلى شقيق زوجته الأكبر، الذي كان يطيق العمى ولا يطيقه، منذ أن وقف ضد قصة حبهما قديماً، وحذّر أخته من الاقتران بموظف تافه ليس لديه أرض ولا عزوة، وليس لديه سوى لسان حلو سيجني عليهما في النهاية. تناسى الأب كل ذكرياته المريرة، وسافر إلى نسيبه الكريه في الإسكندرية، حيث يقيم في شقة فاخرة تطل على بحر سان ستيفانو، بعد أن مهدت زوجته في مكالمة تليفونية طويلة للطلب العاجل، وحلفت له أن الأخ وعدها بتلبية طلبها ورفع رأسها، لكنه بعد أن خبط المشوار الثقيل على قلبه، فوجئ بأخيها يعطيه نصف المبلغ الموعود، ويطلب منه أن يعود إليه بعد شهرين من أجل بقية المبلغ، ويعطيه بالإضافة إلى ذلك محاضرة لزجة في أهمية التخطيط للمستقبل وعيب الخلفة الكثيرة لمن لا يقدر على

مسئولياتها.

حين بكت زوجته فور علمها بما حدث، وهوَت لتقبل قدميه أسفاً على حقارة أخيها، احتضنها وقبل رأسها ويديها وهمّ بتقبيل قدميها، معتذراً عن وضعه لها في هذا الموقف السخيف، لتنهمر الدموع من عيون الأبناء والأحفاد، وينخرط الكل في حضن جماعي، بدأ بالبكاء وانتهى بضحك عارم، حين أطلق أحد الأحفاد قنبلة لا إرادية من مؤخرته، بدّدت كآبة اللحظة، لكن الأب أثار قلق الجميع، حين تعشى بنفس مفتوحة، ولاطفهم طويلاً قبل نومهم، وأطال في صلاته، لتقضي الزوجة ليلها كله في تفقد أنفاسه حين ينقطع شخيره، وحين استمر هدوؤه في الأيام التالية، واصل الجميع الاطمئنان عليه في الرايحة والجاية، خوفاً من أن يطق له عرق من فرط الأسى، لكنه استمر في صموده الهادئ بشكل أذهلهم، ولم يفهموا سره إلا بعد أن اكتشفوا أنه أرسل خطاباً بالبريد المسجل المستعجل إلى برنامج تلفزيوني كان قد اشتهر بفقرة (الحالات الإنسانية) التي يوزع فيها المساعدات على مستحقيها من سائر محافظات مصر.

حكى الأب في خطابه قصته بالتفصيل، مستخدماً كل ما منحته له سنوات القراءة من مخزون في المفردات والتعبيرات البلاغية، ليكتب عبارات درامية حارة كان لها

مفعول السحر على المذيع الشهير الذي قرأ بعضها على الهواء بتأثر، لكنه أعجب بشكل خاص بعبارة (مأساتي أنني أحب أولادي فلا تجعلوا ذلك الحب جريمتي) والتي يبدو أنها أعجبت الأب نفسه وهو يكتبها، فكررها في مطلع الخطاب ونهايته، لكن ما أعجب المذيع أكثر كان قصة حصول الأب على الابتدائية مع ابنه الأكبر، وتفاصيل تعليمه لنفسه ولأبنائه وكفاحه من أجل ذلك، لكن المذيع للأسف أعجب بذلك أكثر من اللازم، فتجاهل الجزء الذي ناشد الأب فيه أسرة البرنامج أن تحافظ على سرية اسمه «حرصاً على صورتي بين أهلي في البلد وأصدقائي خاصة وبعض الأقارب عقارب كما لا يخفى على سيادتكم»، ليقرأ المذيع ذلك الجزء ثم ينظر إلى الكاميرا وقد كسا وجهه التأثر، وهو يلوم الأب على ما كتبه، طالباً منه ألا يخجل من كفاحه، لأن عليه أن يفخر بنفسه، فهو بطل حقيقي في زمن لم يعد فيه أبطال، ولذلك سيقرأ اسمه وعنوانه على الهواء، داعياً لتكريمه على المستوى الرسمي والشعبي، قبل أن يتوجه فريق البرنامج إليه لزيارته في بلدته، وعرض اللقاء الذي سيتم تسجيله معه في حلقة قادمة.

في الحلقة التالية لم يعرض البرنامج شيئاً عن الأب، لكي لا يعرف المشاهدون أن مذيع البرنامج تسبب في قتله، بعد أن أصابته أزمة قلبية حادة وهو يشاهد اسمه مذاعاً على الهواء

في برنامج يعرف أن أغلب أهله وزملاءه يشاهدونه، ومع أن الأسرة لم يكن لديها رغبة في الشكوى لأحد مما فعله مقدم البرنامج، فقد تسبب هو في إثارة غضب الأسرة، حين أرسل مع أحد العاملين ظرفاً به خمسة آلاف جنيه، «هدية من أسرة البرنامج»، لينجو حامل الظرف بفضل الجيران من علقة ساخنة، ويتوجه الإبن الأصغر إلى مقر صحيفة معارضة في القاهرة، فيحكي لأحد صحفييها قصة أسرته مع المذيع الشهير، لتنشر الصحيفة الموضوع مزوداً بالتوابل التي تذم الزمان الوغد الساحق للفقراء، ومصحوباً بصورة الأب التي نشر إلى جوارها عنوان يصفه بـ (شهيد التلفزيون!)، وهو لقب تجاهلت الأسرة التباسه الذي زاد بفعل علامة التعجب، حتى ذكره خال الأولاد باستنكار بدا أنه لا يخلو من السخرية، فكان ذلك سبباً في صفعة تلقاها من الصغير الأهوج، قاطع بعدها أخته إلى الأبد.

لم يكن أحد في الأسرة ليتصور أن ذلك الموضوع الذي نشرته الصحيفة متوسطة الانتشار، سيحل كافة مشاكلها المادية، وأنه سيحضر مذيع البرنامج على ملا وجهه إلى بلدتهم، حاملاً تبرعات من مشاهدي البرنامج، تكفي لإكمال جهاز المخطوبة وتأمين مصاريف الطالب حتى تخرجه، بل وإكمال بناء الدورين الأول والثاني من البيت الحلم، وتحقيق حلم الأم في زيارة الحبيب النبي، مقابل أن تظهر الأسرة في

حلقة من برنامجه للحديث عن كفاح الأب وبطولاته، والحديث أيضاً بشكل مفصل عن صحته المتدهورة وقلبه العليل الذي لم يحتمل فرحة حل مشاكله في البرنامج، الذي كان يدمن الفرجة عليه ويدعو لمقدمه بالصحة والستر، ولم تكن الأسرة برغم كل احتقارها للبرنامج ومقدمه، لتُضيع فرصة مثل تلك الحلقة التي ختمها المذيع بعينين مغرورقتين بالدموع، وهو يشير إلى صورة الأب المعلقة على الجدار مردداً عبارته الخالدة: «مأساتي أنني أحب أولادي فلا تجعلوا ذلك الحب جريمتي».

مظلة طفل الجولاج

حين قلت له إن الطفلة التي تسكن صورتها واجهة موبايله، تشبه ابنتي جداً، أعاد الصورة ثانية إلى واجهة الموبايل، بعد أن كانت الخريطة التي تقوده نحو منزلي قد غيّبتها، وأدنى الموبايل نحوي، وهو يقول بسعادة بالغة: «هذه أكبر حفيداتي».

كان واضحاً أنه يحب كثيراً أن يتكلم عنها، حين تأتي أية مناسبة: «انظر كم هي جميلة، يا الله، جميلة أليس كذلك؟ لعلمك، هذا الجمال اشتركت في صنعه أربع قارات، أنا أصلا من أوكرانيا، وجدتها أصلا من إيطاليا، وأمها، ابنتي مولودة هنا في نيويورك، وأبوها برازيلي»، ودون أن ينتظر مني سؤالاً عن سر اجتماع تلك الخلطة الفريدة، أخذ يحكي بحماس: «لن تصدق كيف قابلت جدتها أول مرة، كان ذلك في إيطاليا، قبل خمسة وأربعين عاماً، أنا الآن لدي خمسة وستين عاماً، مع أنني أبدو أصغر من سني قليلاً كما تلاحظ»، ومع أنه كان يبدو أكبر بعشرة سنين على الأقل، لكنني لم أكن لأقول له ذلك بأية حال، أملا في حكاية كانت تبدو عظيمة.

«كنت قد قدمت إلى مدينة جنوة الإيطالية، هارباً من العاصمة روما، التي كنت أصلا قد وصلت إليها مع البعثة الرياضية، التي سافرت بصحبتها قادماً من الاتحاد

السوفيتي، كنت ماهراً في العدو، حين أريك صوري وأنا شاب، لن تصدق كم كنت رشيقاً في تلك الأيام. البطولات الجامعية التي كسبتها قادتني إلى الاشتراك في فريق الاتحاد السوفيتي، وأمي ابتهجت كثيراً بذلك، ورأت أن لدي فرصة قد لا تتكرر، لكي أبدأ حياة جديدة، لو هربت من مقر البعثة في إيطاليا، لألحق بعد ذلك بخالي المقيم في أمريكا، قالت لي إنها ستستدين لكي أحقق ذلك الحلم، وحين قلت لها إن هروبي يمكن أن يتسبب لها في الأذى، أقسمت أنها لا تبالي بأي شيء يمكن أن يحصل لها مع أنه لن يحصل معها شيء لأن أحداً لن يشك في أنها يمكن أن تحرضه على البعد عنها، وأن المهم بالنسبة لها هو أن أغادر ذلك البلد اللعين بأي شكل، ثم قالت وهي تظن أنها تطمئنني أنهم لو جاؤوا للقبض عليها، ستقتل نفسها لتلحق بأبي الذي سئمت الحياة بدونه، فلم يكن لديها استعداد لأن تعود ثانية إلى السجن، خاصة أنها في الأصل ولدتني فيه، تخيل، تماماً كما أقول لك، ولدتني أمي في معتقل الجولاج، هل سمعت عنه؟، حسنٌ، السينما جعلت الكل يعرف الجولاج، هل تصدق أنهم ذهبوا بها إلى هناك، بعد أن وشى أحدهم بها وبأبي، لأنهما خالفا تعليمات الحزب اللعينة، وقتها كانت حاملاً في الشهر الثالث، لكن لم يشفع لها ذلك معهم».

اختنق صوته وبدا أنه يغالب رغبته الملحة في البكاء،

ليسود السيارة صمت ثقيل، كنت أخشى أن يدوم أو يطول، لكنه قطعه بعد لحظات قصيرة مكملاً حكايته: «ولدتني أمي في السجن، وفيه قضيت أول سبعة سنوات في حياتي، لا أتذكر شيئاً عن تلك الأيام، لأني لا أحب أن أتذكرها، ولأن أمي لم تكن تحب أن تحكي لي عنها أبداً، قالت لي إن الحزن قتل أبي سريعاً، وأنها لا تريد للحزن أن يقتلني، خرجنا من الجولاج وأنا في السابعة، لكنه ظل يعيش معنا كثيراً، أنا شخصيا لم أخرج منه إلا حين أنجبت ابنتي، أما البلد فقد ظل سنين طويلة يعيش في كابوس، حين يقولون لي الآن أن هناك في أوكرانيا من يحنون إلى أيام الاتحاد السوفيتي، أقول لهم جربوا أولا أن تولدوا في الجولاج يا أولاد القحبة، ثم حدثوني عن الكوابيس».

قرر فجأة أن يغير إيقاع الحديث مستعيناً بموبايله: «انتظر سأريك صورة أمي، هي تعيش معنا هنا الآن، عمرها الآن ثلاثة وتسعون عاماً، لكن صدقني حين أقول لك إن صحتها أفضل من صحتي، مع أنها تشرب كأس فودكا كل مساء، لكن دائماً عشاءها خفيف جداً، ربما كان هذا هو سر صحتها الجيدة، هي تنصحني دائماً أن أقتدي بها، لكني للأسف أفضل أن أتعشى متأخراً، لأني أحب العمل في الليل، لأن فيه أكثر راحة لشخص في سني تثير الشوارع المزدحمة أعصابه».

يأخذ الموبايل مني ثانية، مواصلاً حديثه، في حين واصلت الاكتفاء بهز رأسي، لكي لا أقطع تدفق حكيه: «بعد أن سقط الاتحاد السوفيتي، واجتمع شملي بأمي هنا بعد طول غياب، كنت خائفاً من ألا تتوافق هي وزوجتي، خاصة أن أخي كان قد قال لي في رسالة، إن أمي غضبت مني جداً لأني لم أتزوج أوكرانية، كنت وقتها سأجد نفسي في امتحان صعب للغاية، لكنهما لحسن الحظ أحبا بعضهما من النظرة الأولى، تماما كما أحببت أنا زوجتي من النظرة الأولى، لا بد أن ترى كيف يتحدثان سوياً الآن، زوجتي علمتها الكثير من الكلمات الإيطالية، وأمي علّمتها كلمات أوكرانية وروسية، وزوج ابنتي علّمنا فيما بعد كلمات برتغالية، وحفيدتي الكبرى أصبحت الآن تعرف أربع لغات، مدرستها قالت لنا مرة إن ذلك سيجعلها عبقرية، وأنا قلت لها: المهم أن تكون سعيدة، وابنتي قالت لي أن ردي كان سخيفاً، لكنني مؤمن به، بماذا ستنفعها العبقرية لو لم تكن سعيدة».

اضطررت لمقاطعته، خفت أن نصل إلى مقصدي، قبل أن تكتمل قطع البازل المبهر، ولذلك سألته: «لكن عذراً أنت لم تقل لي كيف أحببت زوجتك من أول نظرة؟»، فرفع رأسه بفخر مبين قائلاً: «هي أيضا أحبتني من أول نظرة»، قبل أن يقرر تشويقي أكثر، فيتوقف عن الحكي، ويبطئ سرعة السيارة وهو يعبث في صور موبايله، حتى استقر على

صورة زفافهما، التي كانت بالأبيض والأسود، قرّب الموبايل مني، وهو يميل قليلاً برأسه، ليشاركني النظر فيه، كأنه لا يحتمل إضاعة فرصة رؤية الصورة مجدداً، كانت هي صاعقة الجمال، وكان هو وسيماً جداً ورشيقاً جداً، وكان في الصورة شيء ساحر يغري بالبكاء، وهو أدرك كم أنا مأخوذ بالصورة، فترك الموبايل في يدي، بأكثر مما يحتمله كوني غريباً عنه، قبل أن يأخذه مني ثانية، ويعبث في شاشته، حتى استقر على صورة حديثة لهما، كانت فيها قد فقدت كثيرا من شبابها، لكنها لم تفقد جمالها أبداً، بل أضافت إليه لمسات خاصة بها، وهو كان في الصورة الجديدة مترهلاً وعجوزاً، لكنه كان أكثر طيبة ودفئاً، وكان ينظر إليها بذات انبهاره القديم في صورة الزفاف، ومع أنني لا أظن أنه رأى الدموع وهي تملأ عينيّ، فقد كان الطريق مظلماً للغاية، إلا أنه فيما يبدو شعر أن الأوان قد آن، ليحكي لي كيف التقيا.

«كانت ليلة ممطرة، انس هذا المطر، فهذا مطر لطيف، مطر تلك الليلة كان غزيراً ومقبضاً، وأنا ليلتها كنت خائفاً، لأن الشوارع كانت خالية من المارة، مع أن الليل كان لا يزال في أولها، كنت على مشارف اليأس، كان قد مضى عليّ في (جنوة) أسبوع كامل دون عمل، وثلاثة أيام دون مأوى، وما ظننت أنه حلم ممكن، اتضح أنه شبه مستحيل، لم تكن مسألة السفر إلى أمريكا سهلة كما تصورت أمي، ولم يكن

أحد ليقبل بأن يعمل على سفينته شاب لا يمتلك أي أوراق أو أي خبرة، كنت أتسكع في أحد شوارع المدينة، باحثاً عن مكان أحتمي به من المطر الذي داهمني، حين رأيتها تقف على محطة الأتوبيس، وهي ترفع مظلتها الصغيرة، محاولة الاحتماء من المطر الشرس، وأنا حين رأيتها، لا أدري لماذا شعرت بحنين بالغ إلى أمي وشارعنا ومدينتي، مع أنني لم أكن أكره شيئا في العالم كما أكره مدينتي والحياة فيها».

فكرت للحظة أن أسأله عن اسم مدينته الأم، لكني أخرست نفسي مكتفياً بالاستماع: «فجأة وجدت نفسي أذهب إليها، لأقول لها بالأوكرانية: يا آنسة أريد أن أقول لكِ شيئين، أولاً أنت جميلة جداً وثانياً أنا لم أر في حياتي مطراً لعيناً كهذا، وهي لم تفزع من اقتحامي الغريب لخلوتها، ربما طمأنها شيء ما في نبرات صوتي أو إيقاع كلماتي، ولذلك ابتسمت ابتسامة زادتها سحراً، وقالت شيئاً بالإيطالية لم أفهمه بالطبع، لكنه كان يبدو رومانسياً جداً وفاتناً جداً، وهي قالت لي فيما بعد، إن ما قالته بالإيطالية لم يكن سوى عبارة «لا أفهم كلمة مما تقول يا أخينا»، قبل أن ترفع مظلتها عالياً، وتشير إلي بأن أدخل معها تحت المظلة، التي حمت بالكاد وجهينا من المطر، وبعد لحظات من الصمت، نظرت إليّ مبتسمة، لأكتشف أن لديها قدرة على مضاعفة سحرها مع كل ابتسامة، بعد قليل، هبّت الريح لتطيح بالمظلة من يدها،

لنجري خلفها في الشارع، حتى أمسكنا بها، وعدنا ثانية لنقف تحت المظلة، توليت أنا هذه المرة الإمساك بالمظلة، وهي رأت كيف أتشبث بالمظلة بشكل مبالغ فيه، فضحكت من قلبها، وأنا ضحكت، وظللنا نضحك كثيراً، كثيراً جدا، وليلتها قضينا ساعات نتسكع في شوارع جنوة تحت المطر، ونحن نتواصل بكل ما نعرف من مفردات الإنجليزية، وبعد أسبوع هربنا سوياً إلى نابولي، بعد أن رفض أهلها فكرة زواجي منها، كانوا يظنون أنني أريد فقط أن أحصل على الإقامة، ولذلك هددوني بإبلاغ البوليس عني، بعد عامين هاجرنا إلى أمريكا سوياً، ولن أستطيع أن أحكي لك الآن كل تفاصيل قصتنا، لكن دعني أقل لك أننا لم ننم منذ تلك الليلة متخاصمين، ولو لمرة».

قبل أن يمنحني فرصة لأقول أي شيء، وكأنني كنت سأجد شيئاً أقوله، أطلق ضحكة عالية وقال: « تعرف، لا زلنا حتى الآن نحتفظ بالمظلة، ابنتي أسمتها «المظلة المقدسة»، وزوج ابنتي اخترع طقساً أحبه كثيراً، كلما رُزق بطفل، لديه ثلاثة أطفال، حتى الآن، يلتقط له صورة إلى جوار المظلة، لكي تمنحه المظلة الحظ والبركة، فيجد حب عمره مبكراً، انتظر، سأريك صور الأطفال مع المظلة، لكن عليك أن لا تفزع من صوت بكائي، يا عزيزي لن تصدق كيف لا تزال هذه المظلة اللعينة محتفظة بسحر عجيب بعد كل هذه السنين، كلما

أراها أبكي بشدة، فقط لأنني أتخيل كيف كانت ستكون الحياة لو لم أر إلزا، هل قلت لك إن اسم زوجتي إلزا، حفيدتي أيضا اسمها إلزا، كنت أريد أن أسميها جنوة، لكنهم سخروا مني، طيب، قل لي بعد أن سمعت حكايتي، هل يمكن أن تلومني، لأنني فكرت أن أسمي حفيدتي جنوة».

غِيّة

كان صخبهما غريباً على أجواء الحديقة المنعزلة، التي قضيت فيها أكثر من ساعة دون أن أسمع صوتاً، إلا لسيارة تعبر الطريق القريب، أو ثمرة تسقط من أعلى الشجرة التي لم أكن أعرف نوعها، ولذلك لم أعرف كُنه ثمارها التي تواصل التساقط على الأرض.

كان الصخب صادراً عمّن اتضح حين اقتربا مني أنهما عجوزان، في حين ظل الشاب الذي يسير بينهما صامتاً، وحين اقترب الثلاثة أكثر، بدا أن ما كان يحمله الشاب على كتفه، ليس عصا خشبية طويلة كما ظننت، بل صنارتي صيد صغيرتين، وبدا أيضاً أن صخب العجوزين لم يكن غناءاً، بل مجرد غمغمات غير مفهومة تعلو أحياناً أكثر من اللزوم، ثم تنخفض قليلاً مع نظرات الشاب المعترضة التي ترافقها ابتسامة حازمة.

حين وصل الثلاثة إلى الكرسي الذي أجلس عليه، توقف العجوزان عن إصدار أي أصوات، وصوّبا رأسيهما نحو الأرض في حركة متجانسة يبدو أنهما قد تدربا عليها من قبل، في حين هز الشاب رأسه محيياً ومبتسماً، وبعد أن تجاوزا الكرسي عادا ثانية للغمغمات الفوضوية، التي كانت أحياناً تعود لاكتساب شكل الغناء، كان لطف الشاب قد منعني من

إطالة النظر في وجهيهما، لكن النظر إلى وجهيهما كان كافياً لإدراك أنهما شقيقان، توأم ربما، ولذلك ربما اعتادا أن يلبسا نفس الملابس، ويسرحا شعرهما بنفس الطريقة التي لا يمكن أن تراها إلا وتخيلت خلفها على الفور، أماً تحمّلت الكثير، وأباً أنفق الكثير.

تزايد صخبهما حين وصلا إلى طرف الرصيف الذي يجب أن يعبرا بعده الشارع، ولم يهدءا إلا حين قام الشاب بمنح كل منهما صنارة، لم يكن حجم الصنارتين متناسباً مع ضخامتهما، ولا مع ما أعرفه عن عمق واتساع البحيرة التي كان بيننا وبينها عشرة دقائق من المشي على الأقل. سألت نفسي عما إذا كان مأموناً أن يذهب بهما الشاب بمفرده إلى البحيرة التي تحذر لافتات عدة من النزول فيها لامتلائها بالبكتريا، وكيف يمكن أن يضمن أن أحدهما لن يرمي بنفسه في البحيرة في حركة مفاجئة.

لكن أفكاري المتطفلة على خطط الجمع الصغير توقفت حين فوجئت بالعجوزين وقد جلسا على الرصيف متباعدين عن بعضهما بعض الشيء، وجلس الشاب في المنطقة الفاصلة بينهما وأخرج كتاباً من جيبه وبدأ في قراءته، في حين أخذ كل منهما يرمي صنارته في عرض الطريق، وينتظر قليلاً قبل أن يجذب الصنارة بحماس، ويصدر غمغات ما، يبدو من

بعضها أنه يغيظ أخاه أو يستحثه لكي يجذب هو الآخر صنارته، ثم يعودان لرمي الصنارتين ثانية، دون أن يكترثا بعبور السيارات القليلة، أو يوجها لها أي عتاب، لأنها تعرقل صيدهما، ليظلا في ذلك الطقس العجيب نحو ساعة، لم أقرأ فيها حرفاً من كتابي، الذي لم يكن ليمنحني بهجة وشجناً، كالذي منحني إياه الصيادان العجوزان الجذلان ورفيقهما الصبور.

جزء من حياة آخرين

لا يذهب الناس إلى فروع (ستاربكس) بحثاً عن البهجة، يذهبون إليها لأنها موجودة في كل مكان في نيويورك، ومع ذلك فقد كنت إذا مررت بذلك الفرع القريب من (يونيون سكوير)، لا أتردد في الدخول إليه، حتى لو لم أكن بحاجة ماسة إلى القهوة. شيء ما في ذلك المكان كان يجعله مختلفاً عن غيره من الفروع المتماثلة المعلبة، أظنه تلك المساحة الواسعة التي تجدها في مدخل الفرع، قبل أن تنزل الدرج إلى الأسفل ناحية «النَصبة» كما أحب أن أسميها تيمناً بالقهاوي التي على حق ربنا، وإشارة إلى الأسعار المبالغ فيها لقهوة مغالى في الاحتفاء بها. كانت تلك المساحة الواسعة التي لم تفلح الترابيزة الضخمة في تضييقها، تعطي إحساساً بالانفصال المتميز عن بقية المكان، ولذلك كانت تجتذب على الدوام «كاركترات» متجددة من أولئك البشر الذين لا يمنعهم الإرهاق من مقاومة إصرار الحياة على الفتك بهم، أو هكذا يبدون لك من بعيد.

حين دخلت بالأمس، لم يخذلني المكان، كنت مجهداً من المشي الطويل، كان قد بقي على إغلاق المكان نصف ساعة، لكنه لم يكن هادئاً وحافلاً بالمرهَقين، بل كان شبه خالٍ إلا من قليلين تحلقوا حول سيدتين كانا على وشك إنهاء مباراة

شطرنج، فهمت من التعليقات المتحمسة أنها كانت حامية الوطيس، أخذت كوباية الشاي وجلست إلى الترابيزة متابعاً، أعطاني المكان بصخبه وانبعاثاته اللطيفة الخفية، طاقة كنت أحتاجها لمواصلة مشوار العودة، اكتشفت أن الرجل السبعيني الجالس إلى جواري، نسخة طبق الأصل من الممثل القديم القدير عبد الوارث عَسَر، لم يكن فقط يشبهه في الشكل، بل في الحضور والأداء، هكذا أدركت حين كانت السيدتان المتنافستان، تنظران إليه بعد كل لعبة، كأنهما يطلبان تعليقه أو ربما رضاه، كان يكتفي بهز رأسه أحياناً، أو يغمغم بكلمات لا أسمعها، لكنها كانت تلقى تقديراً بالغاً لديهما كما بدا لي.

بعد ثوان اكتشفت أن إحدى السيدتين تشبه إلى حد كبير أختي الكبرى، صحيح أنها كانت أقصر منها وأضأل وأكثر وقاراً، لكن وجهها كان قريب الشبه منها، شعرها أيضاً كان يشبه شعر أختي، حتى ضحكتها الغريبة كانت تشبهها، كنت حريصاً على ألا أُضبط متلبساً بالبحلقة، ولذلك أخذت أوزع نظراتي بين شبيهة أختي ومنافستها السوداء المرحة عالية الصوت ورقعة الشطرنج والأستاذ عبد الوارث عَسَر، تملكني شعور بالحزن لأن المكان سيغلق بعد قليل، وسرحت قليلاً في تذكر الأدوار التي شاهدتها فيه من قبل، فلم أحضر لحظة نهاية الدور بانتصار شبيهة أختي، التي أفقدتها فرحة

الانتصار وقارها، فأخذت تهلل وتقفز في مكانها بطفولية، ثم منحت الأستاذ عبد الوارث قبلة وحضناً، ولكي لا تغضب منها غريمتها، ذكّرتها بالمرات التي سبق لها أن انتصرت عليها، والسوداء المرحة لم تخف ضيقها ولم تخجل من انعدام روحها الرياضية، وهي تسب وتلعن الجو المتقلب، الذي جعلها تنسى ارتداء قفازات في يديها، فتفقد تركيزها بسبب تأثير البرد على أصابعها.

قررت المنتصرة أخذ صورة تذكارية خاصة، لكي توثّق حالة رقعة الشطرنج لحظة وقوع انتصارها التاريخي، كان في ذهنها على ما يبدو تخيل معين للصورة، ولذلك لم تطلب من أحد التقاط الصورة، بل وضعت موبايلها على حاجز خشبي يواجه الترابيزة، وطلبت من غريمتها أن تقف وتميل بجسمها على رقعة الشطرنج، وترفع ذراعها إلى الأعلى، في حركة تشبه حركات راقصات الباليه، ولكي تشرح تصورها أكثر، قامت بأداء الحركة من جانبها من الترابيزة، حين وقفت السوداء متجاوبة مع الفكرة، بدا أن هناك فارقاً بينهما في الطول أيضاً وليس في الحجم فقط، ولذلك جاءت نتيجة التكوين النهائي للصورة المرتقبة أكثر طرافة، أخذت شبيهة أختي توجه غريمتها بحماس، وتطلب منها ثني جسدها ومد ذراعها بإخلاص، فتشكو لها السوداء المرحة من ألم فرد جسمها فجأة بعد طول قعود، بينما ظل الأستاذ عبد الوارث

جالساً في مكانه بوقار، دون أن يسأل عما إذا كان يفترض أن ينضم إلى الصورة بشكل أو بآخر.

استقرت شبيهة أختي على الشكل النهائي لتكوين صورتها، ذهبت مسرعة إلى الموبايل وقامت بتشغيل مؤقت الكاميرا، وعادت مسرعة إلى موقعها، حيث كانت السوداء المرحة تنتظرها مثنية الجسد ممدودة الذراع متدفقة بالشتائم المعابثة، ثنت شبيهة أختي جسدها ومدت ذراعها، واستعدت لالتقاط الصورة، فلم أدر بنفسي إلا وأنا أمد جسدي إلى الأمام داخلاً برأسي في الفضاء الذي يفصل بينهما، مع لحظة التقاط الكاميرا للصورة التي استغرق تحضيرها الكثير، كنت أضحك من قلبي وأنا أفعل ذلك، توقعت أن تغضبا، لكنهما ضحكتا وبقوة، التفتت نحوي السوداء المرحة وقالت لي ضاحكة: «غريبة، لم يكن يبدو عليك أنك مقتحم صور»، قلت لها وقد شجعتني مودتهما: «لم أفعل ذلك من قبل في حياتي، لكن أليست هذه صورة تستحق الاقتحام»، سعدت شبيهة أختي بالتعليق الذي اعتبرته إطراءاً لفكرة الصورة، وهز الأستاذ عبد الوارث رأسه موافقاً على ما قلته، بينما نظرت السوداء المرحة نحو غريمتها قائلة: «المهم ألا تفكري في إعادة الصورة ثانية، لم يعد تأميني الصحي يغطي تكاليف جلسات العلاج الطبيعي لظهري».

قطع العاملون في المكان بهجتنا حين عاودوا تذكيرنا بأن المكان سيغلق بعد خمسة دقائق، أصرت شبيهة أختي على إعادة الصورة، وطلبت من الأستاذ عبد الوارث أن يقوم بالتصوير، لكي تتفرغ هي لتضبيط التكوين كما تتخيله، قررت مغادرة المكان مكتفياً بما نلته من بهجة طارئة، في طريقي للباب استوقفتني السوداء المرحة وسألتني عن اسمي، وقبل أن أجيبها قالت لي مبررة طلبها: «طبيعي أن نسألك عن اسمك، وقد أصبحت الآن جزءاً من حياتنا»، أخبرتها باسمي وسمعت اسميهما وتبادلنا «الجود نايت»، لكنني بعد أن خرجت وابتعدت عن المكان، ندمت لأنني لم أسأل الأستاذ عبد الوارث عن اسمه، ولم أخبر المنتصرة أنها تشبه أختي.

رجل المبادئ

هو من القلائل الذين يستحقون وصفهم بـ (رجل المبادئ)، وهو لقب لم أكن أستخدمه قبل ذلك إلا في معرض السخرية، ولعلك تجد سبب تقديري له غريباً، في ظل ما تسمعه من هجوم مستمر على مواقفه التي يراها الكثيرون مستفزة وبعضها كذلك بالفعل، لكنني أظنك ستقتنع بكونه رجل مبادئ بالفعل، لو تخيلت ما كان سيصنعه آخرون غيره في موقف كالذي سأحكيه لك.

الحكاية أن صاحبنا كان مدعواً إلى عشاء رسمي فاخر على هامش احتفالية رسمية انعقدت في فندق كبير، حضرها عدد من الضيوف الأجانب وبعض المهمين في البلد، الذين كان من أهمهم عدد من لواءات جهات أمنية مختلفة. كان ليلتها ميتاً من الجوع، وينتظر حلول العشاء بفارغ الصبر، وحين قام بملء طبقه من البوفيه وعاد إلى طاولته لالتهامه، فوجئ برأس صرصار مكتمل الشوارب تطل عليه من داخل طبق الرز المعمر، وحين ظن أن ما رآه كان هلاوس أنتجها الجوع، ساعدته الملعقة على رؤية باقي الصرصار الذي ساعد الزبيب واللوز المحمّص على تمويه جثمانه.

لم يكن سيلومه أحد لو انتفض صارخاً ولعن سنسفيل الفندق والعاملين فيه عن ميتين أبيهم، لكنه أدرك أنه لو فعل

لأطاح بأرزاق عشرة بيوت على الأقل، إن لم يكن أكثر، في أيام كانت السياحة فيها تعيش أوضاعاً مأساوية. تمنى أن يكون الصرصار الذي وجده مقطوعاً من شجرة، وألا يكون له أقارب وأصدقاء مدفونون في صواني أخرى بالبوفيه، ثم قال لنفسه إن كثيراً من الموجودين لا يستحقون أصلاً الانشغال بمصيرهم الصحي، وحين لامه ضميره على المبالغة في الطناش، قرر أن ينتهز أقرب فرصة تواتيه للانسحاب في هدوء والذهاب إلى المشرف على البوفيه، ليعطيه كلمتين في جنابه ويطلب منه التصرف سريعاً، ثم قال لنفسه ساخراً إن وجود الصرصار في صينية الرز بالخلطة، حولها بشكل ما من طبق شرقي إلى طبق صيني، وأن ذلك يتماشى مع سياسة الدولة الحالية في التقارب مع الصين، مواصلاً الحديث مع نفسه والتظاهر بالأكل، وتصنع الاهتمام بما يقوله رفاق المائدة من اللواءات، حتى تحين فرصة للتسحّب نحو المطبخ.

ما زاده قدراً عندي، أنه لم يحكِ لي الحكاية متفاخراً خلال سنوات صداقتنا الوثيقة، فلم أعرفها إلا بالصدفة، حين كنا ذاهبين لحضور فرح بأفخم فنادق القاهرة، وحين أنهينا أداء الواجب الثقيل وخرجنا، انقضّ على صاحبنا رجل يرتدي قبعة الطاهي، وانهال عليه بالقبلات والأحضان، بل وحاول أن يقبل يديه، قائلاً إنه لن ينسى له أبداً أنه أنقذ حياته، وأنه

لأطاح بأرزاق عشرة بيوت على الأقل، إن لم يكن أكثر، في أيام كانت السياحة فيها تعيش أوضاعاً مأساوية. تمنى أن يكون الصرصار الذي وجده مقطوعاً من شجرة، وألا يكون له أقارب وأصدقاء مدفونون في صواني أخرى بالبوفيه، ثم قال لنفسه إن كثيراً من الموجودين لا يستحقون أصلاً الانشغال بمصيرهم الصحي، وحين لامه ضميره على المبالغة في الطناش، قرر أن ينتهز أقرب فرصة تواتيه للانسحاب في هدوء والذهاب إلى المشرف على البوفيه، ليعطيه كلمتين في جنابه ويطلب منه التصرف سريعاً، ثم قال لنفسه ساخراً إن وجود الصرصار في صينية الرز بالخلطة، حولها بشكل ما من طبق شرقي إلى طبق صيني، وأن ذلك يتماشى مع سياسة الدولة الحالية في التقارب مع الصين، مواصلاً الحديث مع نفسه والتظاهر بالأكل، وتصنع الاهتمام بما يقوله رفاق المائدة من اللواءات، حتى تحين فرصة للتسحّب نحو المطبخ.

ما زاده قدراً عندي، أنه لم يحكِ لي الحكاية متفاخراً خلال سنوات صداقتنا الوثيقة، فلم أعرفها إلا بالصدفة، حين كنا ذاهبين لحضور فرح بأفخم فنادق القاهرة، وحين أنهينا أداء الواجب الثقيل وخرجنا، انقضّ على صاحبنا رجل يرتدي قبعة الطاهي، وانهال عليه بالقبلات والأحضان، بل وحاول أن يقبل يديه، قائلاً إنه لن ينسى له أبداً أنه أنقذ حياته، وأنه

مدين له هو وأسرته بكل ما وصل إليه، وأنه يدعو له في كل صلاة بالستر والصحة، هو وكل زملائه الذين تذكره بعضهم بالدعاء في الكعبة، وبدا أن لدى الطاهي استعداد لأن يواصل الثناء والتعبير عن الامتنان، لولا أن صاحبنا استأذنه لكي ينصرف لأنه مرتبط بموعد، فلم يتركه الطاهي إلا بعد «حُضن مطارات».

كان واضحاً على ملامح صديقي أنه تأثر للغاية بما سمعه من الرجل، وبدا مفاجَئاً به، وحين ركبنا السيارة، ضحك بشدة بعد أن قال لي إنه سيكون من المثير للاهتمام أن يدخل عربيد مثله الجنة بسبب صرصار، ثم حكى لي الحكاية.

مشبوه!

لم يتمكن من منع نفسه من الضحك، حين قال له الضابط إن سبب القبض عليه وجرجرته إلى القسم، هو الاشتباه في عزمه على سرقة محل المجوهرات الذي ظل يحوم حوله طيلة الأسبوع الماضي، طبقاً لما صورته كاميرات المراقبة التي ركّبها صاحب المحل، لكن الصفعات المتتالية التي نزل بها الضابط على قفاه، أوقفت قدرته على الضحك، ثم أدخلته في نوبة بكاء عارمة، ظنها الضابط الشاب ندماً سيعقبه إقرار بالذنب، وإرشاد عن شركاء مختبئين محتملين.

هل كان الضابط سيصدقه لو اعترف له أنه كان يحوم حول محل المجوهرات طيلة الأسبوع الماضي، فقط ليرى الرجل الذي قتل أباه قبل خمسة عشر سنة؟ وإذا كان الضابط مهتماً إلى هذا الحد بسلامة محل المجوهرات من أبسط اشتباه، فكيف سيتعامل إذن مع اعتراف كهذا يخص صاحب المحل؟ هل سيجد نفسه عندها متلبساً بتهمة الشروع في القتل أو التخطيط له؟ هل سيصدقه الضابط لو قال له إنه حاول إجبار نفسه على عدم الذهاب إلى المحل، لكنه فشل في ذلك بعد أن عرف قبل أسبوعين من عمه بتفاصيل الدور الذي قام به ابن تاجر الذهب الشهير في مقتل أبيه، الذي رحل عن الدنيا وهو لا يزال في اللفّة؟

هل سيصدقه الضابط لو أقسم له أنه لم يكن يدري ما الذي ينبغي عليه أن يفعله بتلك التفاصيل الثقيلة؟ هل يجب عليه أن يقتل ابن التاجر الذي لم يعد شاباً طائشاً، بل أصبح وريثاً لتجارة أبيه وثراءه ونفوذه؟ وكيف سيفعل ذلك إن قرر فعله؟ وإذا لم يكن من الصعب توفير السلاح الذي سيأخذ به ثأره، فهل سيمتلك عزيمة القتل حين يحين وقتها؟ أم سيجبن عن ذلك خوفاً على مستقبله وتقديراً لخوف أمه وحزنها؟ هل يكتفي بمواجهة القاتل بما فعله قبل سنين، حين صدم والده المسكين بالموتوسيكل المستورد الضخم فأحدث فيه جروحاً نافذة أدت إلى وفاته بعد يومين؟ وكيف سيستقبل القاتل الطائش تلك المواجهة؟ هل سينكر ما فعله أم سيعترف به ويطلب الصفح والغفران أم أنه سيواصل جبروته ويقتله كما قتل أباه من قبل؟ وإذا كان القانون لن يعاقبه على أحلامه الطفولية التي رأى نفسه فيها يركب شاحنة ضخمة ويدهس الجواهرجي بعد خروجه من المحل؟ فهل كان سيعاقبه لو طاوع رغبته في البصق على الجواهرجي أو «لزقه على قفاه» قبل أن يجري هارباً وسعيداً بما حققه من انتصار مبدئي؟

أربكه ارتباك الضابط حين رآه يواصل البكاء بحرقة، وتأثر بكوب الماء الذي أحضره له، وبطلبه منه أن يهدأ ويوحد الله ويعترف بالحقيقة «أحسن له». ألن يكون أحسن له فعلاً لو

اعترف بكل شيء ليخرج نفسه من هذا الموقف السخيف الذي لن تسامحه عليه أمه حين يبلغها؟ لكن من يضمن له أن هذا الضابط لن يكون على صلة بسابقيه الذين ساعدوا قاتل أبيه على الإفلات بجريمته، حين كتبوا كذباً في محضر الحادث أن القاتل ابن القحبة هو الذي أبلغ بنفسه عن الحادث وسلم نفسه لقسم الشرطة بعد التأكد من إسعاف المصاب، مع أن رجال أمن المستشفى الذي يعمل فيه الأب هم الذين قبضوا على المجرم بعد الحادث مباشرة، ومنعوه من الهرب من مسرح الجريمة، وسلّموه هو والموتوسيكل إلى الشرطة، قبل أن يختفي الموتوسيكل في نفس الليلة من قسم الشرطة، ويقوم أهل القاتل بعد اختفائه بتحرير محضر يبلغون فيه عن سرقة الموتوسيكل، ويتم تحرير المحضر بتاريخ قديم بالتواطؤ مع ضباط القسم، ليضيع حق أبيه بعد أن اختفت أداة الجريمة، بل ويتحول بعدها القاتل إلى مظلوم مسكين، فوجئ بمن يرمي نفسه عليه خلال قيادته الموتوسيكل، ليطلب ربما تعويضاً من أبيه تاجر الذهب الكبير، كما ألمح المحامي الشرموط الذي وكلته العائلة الغنية لابنها.

«صحيح أن المصاب طبيب، لكن دعونا لا ننس أنه طبيب تخرج منذ عامين ليس إلا، وأنجب قبل عام، ومن يدري ربما اشتدت عليه مصاريف ابنه وزوجته، فتفتق ذهنه عن تلك

الحيلة الجهنمية، وقرر أن يرمي بلاه على جاره صاحب محل المجوهرات الشهير الذي يشهد أهل المنطقة كلهم له بفعل الخير وإطعام الفقراء والمساكين، ومن يدري ربما صورت له مخيلته كطبيب أن الأضرار التي ستحدث له ستكون طفيفة سهلة العلاج؟ فتصور حينها أنه سيفلت بفعلته بعد أن ينال من والد الشاب المسكين ما يحل أزماته المالية، مع أنه لو كان قد جاء إلى الأب الذي لا يقفل أبواب محله في وجه أحد، وصارحه بظروفه لما تأخر عنه كما لم يتأخر على أحد ممن لو طلبتهم شهادتهم في حقه لقضيتم الأيام والليالي في تسجيل أقوال الشاهدين بكرمه وفضله وإحسانه»، هكذا قال أشهر محامٍ في البلاد، قبل أن يطالب النيابة بضرورة الإسراع في مخاطبة الجهات الأمنية لسرعة ضبط الموتوسيكل الذي سُرِق من داخل فناء قسم الشرطة، مؤكداً أنها حادثة مقلقة لكنها تحدث في كل بلاد الدنيا، ولا داعي لتضخيمها كما فعلت بعض الصحف الصفراء التي لا تخفى على كل وطني مخلص رغباتها الشريرة في إثارة الأحقاد بين الطبقات وزعزعة الاستقرار وتمزيق النسيج الاجتماعي، طالباً الإفراج عن موكله بضمان محل إقامته، حتى تتم استعادة الموتوسيكل المسروق وفحصه من قبل لجنة مختصة ترفع بصمات الجناة الحقيقيين، أو حتى يفيق المصاب من غيبوبته ويعترف بما خطط له إذا كان قد خطط له، «فنحن

لا نريد ظلم أحد كما ظُلِم موكلي»، وفي كل الأحوال، سيتنازل الشاب المظلوم الذي تعرض للفزع والترويع عن حقه من المصاب، تقديراً لظروفه ومراعاة لأحواله الاجتماعية.

حتى الآن لا يفهم كيف تماسكت أمه وأسرة أبيه، بعد أن استجابت النيابة لطلبات المحامي الشهير، ليتم الإفراج فجأة عن قاتل أبيه، الذي يبدو أن قهر أسرته بسبب الإفراج عن القاتل، قد وصله في غيبوبته فأجهز عليه ورحل إلى جوار الله. لا يدري كيف لم يفكر أحدهم طيلة هذه السنين في الانتقام من القاتل اللعين الذي ظل لسنوات يروِّع الشارع بأكمله بسباقاته المتكررة هو وأصدقاؤه الفرحين بموتوسيكلاتهم الضخمة المستوردة؟ لا يفهم كيف اكتفت أمه بمغادرة عش الزوجية الذي جمعها بحبيبها، لتعود إلى بيت أبيها مقررة أن تنسى كل شيئ في الدنيا إلا ابنها، لا يفهم كيف طلب أهل أمه من أهل أبيه أن يتوقفوا عن تقديم البلاغات ورفع القضايا لأنها لن توصل إلى شيء، وأن ما فعله المحامي الشهير في النيابة يمكن أن يفعل أضعافه في المحكمة ليجدوا أنفسهم ربما متهمين بسرقة الموتوسيكل أو أي مصيبة أخرى لن يغلب في تدبيرها بل وربما قاموا بخطف الطفل المسكين ليجبروا الأسرة على الصمت، لا يفهم كيف ظنت أمه أنه لن يعرف أبداً بما جرى، ولا كيف توقعت

أنه حين يعرف ما جرى سيؤيدها على موقفها المتخاذل الجبان، وأنه سيكتفي بالصمت حين يعرف بما حدث لأبيه الذي قُتل مرتين، مرة حين صرعه الموتوسيكل اللعين، ومرة حين ضاع حقه هدراً، ولم يحصل من قاتله على تعويض أو حتى اعتذار، بل حصل أهله المساكين على تهديدات بأن يتوقفوا عن النبش في ملفات القضية لكي لا ينالهم غضب التاجر الذي لا تُحصى جمايله وأفضاله على كثير من كُبارات البلد.

لم يفهمه الضابط الشاب حين سأله فجأة عن اسمه، ظن أن دماغ المسكين لَسَعت بفعل الكم قفا التي أكلها على خوانة، وفكر في أن يعدل له دماغه بكذا قفا جديد، لكنه حين رآه يلح في معرفة اسمه أجابه ليجئ بآخره، لكنه فوجئ به يسأله بكل بجاحة، ما إذا كان قريب اللواء الفلاني أو العقيد العلاني، ذكراً له أسماء كان يعرف بعضها من بعيد لبعيد، وهنا قرر الضابط النبيه أن يأخذه على الهادي، إذ لربما كان وراءه صلة بتنظيم إرهابي يستهدف كبار ضباط الشرطة وبعض محلات المجوهرات، وحين امتدت يد الشاب إلى جيبه الخلفي، عاجله الضابط وقام بتطويقه، وهو يلوم نفسه لأنه لم يقم بتفتيشه ذاتياً لحظة القبض عليه، ربما لأنه انخدع بملامحه الطفولية المذعورة حين تم القبض عليه.

«كسر كامل في عظمة الفخذ اليمنى، كسر كامل في عظمة الفخذ اليسرى، كسر متفتت في عظمتي الساق اليسرى، نزيف في الركبة اليسرى، كدمات وتسلخات وتجمعات دموية في أنحاء متفرقة بالجسم، نزيف داخلي، كسور بالغة في الجمجمة»، كان لديه إحساس أن الضابط الشاب سيتعاطف معه، حين يقرأ التقرير الطبي الذي أعطاه له عمه، هو وكل ما ظل يحتفظ به من صور بلاغات ومحاضر وشكاوى، لم يفرط فيها برغم مرور السنين، وتصور أن رد فعل الضابط المتعاطف سيشجعه على أن يحكي له الحكاية كلها، بدءاً من العملية الجراحية التي استمرت سبع ساعات لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من جسد أبيه المتهتك بفعل الاصطدام، ومروراً بسيرة أبيه العطرة ومستقبله الطبي الواعد الذي شهد له به كل أساتذته، الذين تضامنوا مع الأسرة في مطالبها بضرورة إنصاف أبيه لكن الجميع انشغلوا عنهم بعد ذلك بتلاهي الدنيا، وانتهاءاً بأمه التي تضاعفت صدمته حين عرف أنها حاولت الانتحار مرتين لتلحق بحبيبها، قبل أن تستعيد إيمانها بالقضاء والقدر، وتقرر دفن نفسها بالحيا في احتياجات ابنها ومتطلبات مستقبله.

حين رأى ملامح الدهشة التي ارتسمت على وجه الضابط وهو يسمع حكايته، تشجّع وفكر للحظات أن يطلب منه مساعدته رسمياً في إعادة التحقيق في قضية مقتل أبيه،

لكن أوجاع قفاه الذي لا زال ملتهباً أقنعته بتأجيل الطلب إلى وقت آخر، يكون قد ملأ فيها يده أكثر من شرف الضابط، فمن يدري ربما كان ما يراه على وجه الضابط، ليس اندهاشاً بل خوفاً من انكشاف الحقيقة التي ربما كان أحد أقاربه متورطاً في حجبها؟ ومن يدري ربما وقع حظه في ضابط محترم ابن ناس إذا لم يكن قادراً على رد مظلمته، فلن يواصل ظلمه، وسيتركه لحال سبيله، أياً ما كانت حقيقة الضابط وطبيعة رد فعله، الأهم الآن أن يركز على طلب عاجل، يتمنى من الله مخلصاً أن يدرك الضابط أهميته ويسانده فيه، وهو ألا تعرف أمه بما حدث له، أياً كان ما سيحدث له.

أقدام وأعتاب

لم أكن قد سمعت أصواتاً مشابهة لخناقات عائلية كتلك الأصوات، إلا في فيلم هندي لم أعد أذكر تفاصيله، الفارق هنا أن هذه الخناقات العائلية لم تكن مشهداً عابراً في فيلم من ثلاث ساعات يمتلئ بالأغاني والرقصات والأكشن والدموع والضحكات، بل كانت مشهداً مقيماً في حياة دامت عامين، كانا عمر إقامة تلك الأسرة الهندية في الشقة المجاورة لي بعمارتنا النيويوركية هشة الجدران، والتي لم يكن الاستماع إلى خناقات الجيران فيها، يستلزم وجود مَناور كما هو الحال في بلادنا التي تتحول مناور العمارات فيها إلى نسخة إذاعية من برامج تلفزيون الواقع.

حين سكنّا شقتنا، كانت الشقة المجاورة لنا خالية، وحين سُكِنت، اكتشفنا سريعاً قدرة الجدران على فضح كل شيئ، فكان ذلك درساً متأخراً ومهماً، لكن جيراننا أضافوا إلى خناقات الداخل المستمرة، طقساً جديداً هو الخناق الليلي في البلكونة، التي كان يفصلها عن بلكونتنا حاجز معدني قصير، وهي خناقات كانت تستدعي أحياناً أطرافاً أخرى على التليفون، في الهند ربما أو في غيرها، لا أدري، لكنها كانت تبدأ دائماً من طرف الزوج بمونولوج طويل غاضب، يعقبه صمت قصير، ثم محاولات متعثرة لانتزاع الكلمة، ثم

رزعة لباب البلكونة، ثم فتحه مجدداً، ثم مونولوج طويل حزين تلقيه الزوجة، يعقبه صمت طويل، ثم يتلوه بكاء حاد، ثم رزعة لباب البلكونة، ثم محاولة من الزوج للحديث، تفشل فيتبعها صمت طويل، ينتهي بحديث هادئ النبرات تفوح منه رائحة الاعتذار أو ربما الرغبة في إنهاء الحديث، يعقبه بيان ختامي من الزوجة يتخلله بكاء قصير، ثم يسود الأجواء هدوء تام، ينتهي بإغلاق متوسط الحدة لباب البلكونة.

لم تكن تلك الخناقات الليلية البلكوناتية تقتصر على فصل بعينه، بل كانت لا تفرق بين صيف رطب وشتاء قارس، وبرغم أنها أثارت شكاوى متعددة على الموقع الإلكتروني الخاص بالعمارة الضخمة، وبرغم توجيه بعض السكان لنداءات حادة لفاعلي الخير، للإرشاد إلى مصدر الشقة التي تنبعث منها الأصوات المزعجة ليلاً، إلا أنني رفضت لعب دور الواشي، لعلي أعامَل بالمثل حين يضطرني الزمان للخناق في البلكونة، أو ربما لأنني كنت في بعض ليالي الصيف الخانقة أسلي نفسي بترجمة افتراضية للخناقات، وأشحذ خيالي الدرامي باختلاق أسباب لها، أقتبسها من مجمّع الصور النمطية الذي كوّنته لديّ سنوات مشاهدة الأفلام الهندية، مع خالي المغرم بمشاهدتها في يوم أجازته، وهو طقس انقطع بعد مغادرة الأسرة الهندية للشقة، بعد أن تحولت إحدى الخناقات إلى اشتباك جسدي، جعل الزوجة تستبدل الشكوى

للهند والله، بالشكوى للبوليس، لتخلو الشقة من الأسرة الهندية سريعاً بعد حبس الزوج، ويتاح لي في العامين الذين تليا مغادرة الأسرة، الاستماع إلى خناقات مشابهة ولكن بالأسبانية لمدة ستة أشهر، ثم بالروسية منذ عام وحتى الآن، وهي خناقات كلما تجددت، تجدد معها شكري لله، لأنني رفضت السكن فيها حين عرضت عليّ، لأن ضيقها الشديد كان على ما يبدو خانقاً لدرجة تجعل الخناق في البلكونة أمراً لا بد منه لاستمرار الحياة.

أن تأتي متأخراً

حين سألته عن تجربته مع الزواج، لم أكن أعرف ما انتهى إليه حاله، ولو كنت أعرف لما سألت.

كان أكبر مني سناً، أكبر بكثير، ولم أكن ألتقيه بانتظام منذ أن بدأت معرفتي به، لكن المودّة و«الاستجداع» الذي لا يحتاج إلى أسباب أكيدة، أزالا حاجز فرق السن وقلة اللقاءات، فصرنا حين نلتقي نبدو لمن لا يعرفنا كأننا صديقان منذ أمد بعيد. حين عرّفني عليه أستاذي الذي كان من أبناء جيله، كان حريصاً على «بَروَزة» حكاية أنه أستاذ في جامعة فرنسية مرموقة، ليقول لي أستاذي لاحقاً إن صاحبنا كان لامعاً ومتفوقاً على كثير من أقرانه في بواكير الشباب، وأن سفره الطويل إلى فرنسا حين جاءته فرصة الهجرة هو الذي أوقف استمرار انشغاله بالشأن العام كتابة ونشاطاً، ولذلك لم يعرفه أبناء جيلي، ولذلك أيضاً أدهشتني متابعته الدقيقة لكل ما يدور في مصر من أزمات وقضايا رأي عام، مع أنه لم يكن يقيم فيها إلا شهراً واحداً في الصيف، وأسبوعين في الشتاء، ليصير لي مع الوقت نصيب وافر من رحلتَي شتائه وصيفه.

حين فاجأنا بأنه قرر أن يعود من إقامته الطويلة في باريس التي عاش فيها مع زوجته وحيدين دون أبناء لأكثر

من عقدين من الزمان، كنت على وشك الزواج بعد عزوبية طويلة، وكنت قد قررت أن أقوم بجمع تجارب كل من أعرفه عن الزواج، لعلي أعتبر وأستفيد، أو لعل توتري مما أنا مقبل عليه يخفّ، ولأنه لم يكن يتحمس للحديث عن حياته الشخصية مطلقاً، فقد استبشرت حين اهتم بسؤالي وتجاوب معه متحمساً، ومشجعاً لي بأن أمضي في مشروعي، وألا ألقي بالاً للنصائح المثبطة والمخوفة من النكد الزوجي الحتمي، لأن النكد على حد تعبيره، «مثل السعادة لا يهبط من السماء فجأة، بل يزرع الإنسان بذوره بيديه ثم يندهش حين يفاجأ به وقد ملأ حياته»، ولأن رأيه لم يكن شائعاً بين من أعرف من قدامى المتزوجين، الذين كنت أشعر أن تشجيع بعضهم لأمثالي على قرار الزواج، أشبه برغبة في الاستدراج إلى فخ مُحكَم سبق أن هلكوا فيه، لذلك قررت أن أركز في حديثي معه على نصائح عملية، تساعدني على أن يكون زواجي طويلاً وسعيداً كزواجه، في عالم يندر أن يكون فيه الزواج طويلاً وسعيداً.

وجدت نصيحته الأولى مبهرة، ولا زلت أتذكرها حتى الآن بنص كلماتها: «لا تنم بعيداً عن زوجتك مهما كان بينكما من مشاكل أو خلافات، لا تستهن أبداً بتأثير اللمسات العفوية التي قد تحدث حين يتقلب أحدكما وهو نائم إلى جوار الآخر، أو حين يصحو فيجده أمامه، طبعاً سيكون هناك تأثير

رائع إذا كان هناك حب من الأصل، فحين لا يكون هناك حب، ستزيد كل لمسة عفوية أو متعمدة من نار الكراهية التي تقود حتماً إلى خراب البيوت».

وبحكم العشم، كان طبيعياً أن يقودنا الحديث عن اللمسات العفوية، إلى الحديث عن الجنس العفوي منه والمتعمد والذي يستهبل ويدعي العفوية، وهو حديث لم يحبه ولم يسهب فيه، لأسباب لم أتبينها، إلا حين أدلى بنصيحته الثانية والأخيرة: «إذا ارتكبت زوجتك تصرفاً تراه خاطئاً، لا تؤجل إعلان غضبك عليه أبداً، حتى ولو قال لك عقلك إن في كتم الغضب حكمة، وما أكثر ما يضل العقل أصحابه، أعلن غضبك ولا تتردد، وإذا حدث وأن تجاوزت حدك وأنت غاضب فاعتذر بقوة حين يسكن عنك الغضب، وسيكون ذلك أرحم بكثير من أن تخفي غضبك وتتظاهر بالرضا عن خطأ زوجتك، لأنك بذلك تجعل فرصة إصلاح الخطأ أصعب في المستقبل».

بدت لي النصيحة مثيرة وغامضة، ولذلك استدعت مني أسئلة تفصيلية متلاحقة، لم يقدم للإجابة عليها سوى صمت قصير، فاجأني بعده بأن زيجته الطويلة السعيدة انتهت فجأة بشكل أليم وبايخ، وأن قراره بالعودة النهائية إلى الوطن كان بسبب تلك النهاية الأليمة البايخة، ولأنه كان

يحتاج إلى الفضفضة أشد من حاجتي إلى النصيحة، فقد أدخلني لأول مرة في زواريق حياته الخاصة، وحكى لي كيف انتهت زيجته على غير ما كان يتمناه وما كنا نتوقعه.

بدأت النهاية حين مر صاحبنا مع زوجته بفقدان تدريجي للشغف الجنسي ثم العاطفي، وهو ما ظنه أمراً مؤقتاً بحكم طولة العِشرة، أو بحكم تقدم سنه فقد كان أكبر منها بنحو عشرة أعوام، وبحكم انهماكه في مشاغله، لم يتوقف كثيراً عند الأمر، آملاً في هدنة قريبة طويلة من المشاغل، تتيح لهما وصل ما انقطع وإرواء ما ذبل، وحين كانت الظروف تتيح لهما سفريات قصيرة في بعض الأجازات، كان شغفهما ببعضهما يأخذ دفعات لا بأس بها، وهو ما جعله يشعر أن ما سبق من فتور كان أمراً طبيعياً، سيزول بالكامل حين تتحسن الظروف أكثر وتتيح لهما أن يتقاعدا في مكان ما من الأماكن التي كانا يفكران في عيش أيامهما الأخيرة فيها سوياً.

حين قالت له زوجته ذات يوم إنها لن ترتدي خاتم الزواج من هنا ورايح، لأنه أصبح يضايقها بعد أن اكتسبت بعض الوزن، لم يعط الأمر أهمية لأنه كان كثيراً ما ينسى ارتداء خاتمه، وكان يعجبه أنها لا تجعل من تلك الحبة قبة، كما تفعل أخريات من زوجات أصدقائه، لكنه بالطبع لم يتصور، أن ذلك

التصرف الهايف سيجعلها تأتيه بعد أشهر مرتبكة ومتوردة الوجه في نفس الوقت، لتقول له ـ بعد ما أدرك فيما بعد أنه كان تردداً في الاعتراف وليس استجماعاً عفوياً للأفكار ـ إنها تعرفت بالصدفة منذ أسابيع على رجل يسكن في العمارة المقابلة، وأن المعرفة حدثت بعد أن أخافها كلبه الضخم الذي أفلت زمامه من بين يديه خلال تمشيتهما اليومية، وحين ثبت لها سريعاً أن كلبه ألطف وأتفه مما يوحي شكله، شعرت بخجل زاد حين بدا الرجل حريصاً على ملاطفتها وتهدئتها.

حين سألها الرجل بعد أن لاحظ لكنتها الثقيلة من أي دولة هي؟ أجابته أنها من مصر، فأظهر انبهاراً أكثر من المعتاد، وحدثها عن حلمه القديم بزيارة بلدها المثير لاهتمامه منذ كان طفلاً، وأنه حين قرر أن يحقق ذلك الحلم، بدأ يسمع أن ظروف البلد لم تعد على ما يرام، فتطوعت بحماس لتفنيد ما سمعه بكلام حرصت على أن يكون منضبطاً وبعيداً عن العاطفة، وهو ما ثبت نجاعته، حين رأته في المرة التالية، حيث قال لها إنه تأثر بما قالته، وأنه وجد مصداقاً له في شهادات كثيرين على الإنترنت، ولذلك طلب من وكيله السياحي أن يرتب له زيارة في الصيف القادم، ليتواصل حديثهما في المرات التالية التي التقيا فيها، عن الأماكن التي يجب عليه أن يزورها، والأماكن المغالى في الاحتفاء بها، بينما هي لا تستحق الزيارة، ليفاجئها ذات تمشية مشتركة

لهما مع الكلب بأنه لا يفكر فقط في مصر، بل يفكر فيها كثيراً منذ رآها لأول مرة، وأنه معجب بها كثيراً شكلاً ومضموناً، لدرجة أنه حلم بها أكثر من مرة وهي ترتدي فستان الزفاف وتقف إلى جواره أمام قسيس يتلو عليهما عهود الزواج، طالباً منها أن تتيح له فرصة التعرف عليها أكثر، بأن يخرجا سوياً في موعد على عشاء أو سينما أو على كليهما.

حاول صديقي الكبير أن يكتم ضيقه الذي اجتاحه بعد ما سمعه، ليحافظ على صورة الرجل الواثق من نفسه اللطيف مع زوجته، خصوصاً بعد أن اعترفت له زوجته أنها فوجئت بأن ما قاله لها ذو الكلب أسعدها جداً، وأنها فوجئت أكثر بنفسها، حين لم تبادر لإخباره بأنها متزوجة «وتحب زوجها بقوة»، بل قالت له في الأول إنها مسلمة، وأنها لا يصح شرعاً أن تتزوج من غير مسلم، لتفاجأ أكثر به في اللقاء التالي، وهو يقول لها خبط لَزْق إنه فكر فيما قالته جيداً، وأنه مستعد لأن يعلن إسلامه فوراً، وأنه في الأصل ليس مسيحياً ملتزماً، بل وأنه مستعد للتخلي عن تربية الكلاب إذا كانت تضايقها، خاصة وقد قرأ على الإنترنت أن المسلمين ليس بينهم وبين الكلاب عَمار، وهنا قررت إيقاف تطور الأمور المتسارع بشكل مفزع، فقالت له إنها تشكره جداً على كلامه اللطيف، لكنها في الحقيقة متزوجة منذ سنين طويلة، لكنها ـ كما لاحظ صديقي ـ لم تقل له إنها «تحب زوجها بقوة»،

وحين لمحت الزوجة المرتبكة نظرة جارها المصدومة إلى أصابع يديها، فهمت سبب نظرته، وقالت له مفسرة إنها خلعت خاتم الزواج مؤخراً بسبب التهاب في أصابع يديها، وتأسفت على تسببها في سوء الفهم ذلك، ثم شكرته على لطفه وذوقه، لينهال عليها بدوره بوابل من الاعتذارات الممزوجة بقلق بيّن وارتباك شديد.

أخذ صاحبي تنهيدة طويلة ليرتاح من عناء حكيه لما أثقل صدره، وبعدها اعترف لي أنه أخطأ حين واصل كتم غضبه، وظل محافظاً على ابتسامة كان يظنها لطيفة، لكنه بمنتهى الأمانة يراها الآن لزجة، خاصة أنه كان يداري بها على ظنه أن زوجته كانت تبالغ في تفاصيل الحكاية، كعرض من أعراض بلوغ مشارف الخمسين، وأنه حين تذكر مناقشات سابقة بينهما عن حب التملك ومشاكل الرجل الشرقي الذي لن يكون أبداً مثله، قرر أن يحول الابتسامة اللطيفة ـ التي لم يكن يراها لزجة ـ إلى ضحكة عريضة ـ لم يكن يعتقد أنها أشد لزوجة ـ ثم قال بعدها لزوجته كلاماً لطيفاً عن حظه السعيد كرجل يتزوج امرأة متجددة الشباب والجمال، وعن ذوق جارهما الرفيع، لتجمعهما بعدها ليلة كان يظنها مرضية لهما ومجددة لما انقطع من شغفهما، ولم يكن ليخطر له على بال أنها وهي معه، لم تكن تفكر فيه أصلاً، وأنها بعد أقل من عام لن تكون معه، بل ستكون بالفعل زوجة جارهما على سنة

الله ورسوله، بعد أن ترك من أجلها دينه وكلبه وباريس، وانتقلا سوياً إلى مدينة جبلية بعيدة، ليكون ذلك آخر عهد صاحبنا بفرنسا وبالزواج، وحين قال لي بعدها كلاماً كثيراً عن أهمية سد الثغرات الزوجية أولاً بأول وعدم التهاون في أتفه التفاصيل التي يمكن أن تقود إلى ما هو أخطر منها بكثير وعن عدم الاعتماد على طول العِشرة، أخذت أهز رأسي متظاهراً بتأييده، ولم أقل له طبعاً إن مشكلته كانت طبعاً أعمق، من غضبة كان ينبغي في ظنه أن تكون معلنة، ومن خاتم في يد زوجته يرى متوهماً أنه لم يكن ينبغي أن يغادرها.

بطولات يومية

منذ سنوات طفولته الأولى ارتبط مصير طارق بأمريكا. كان أبوه فنياً بارعاً في صيانة الطائرات، لم يعد يذكر أين بدأ أبوه دراسة صيانة الطائرات، لكنه لا زال يحتفظ بالشهادات التي حصل عليها من دورات تدريبية نظمها خبراء أمريكان، كان الأب ابن قرية قريبة من مدينة بيشاور الباكستانية، وحين فتح الأمريكان في الستينيات قاعدة عسكرية جوية بالقرب من المدينة، تدرب فيها الأب وأبدى تفوقاً، جلب له فرصة عمل داخل القاعدة الجوية، كانت سبباً في استقرار حياته وازدهارها، تزوج وأنجب وسافر وواصل التدريب وترقّى وضحكت له الحياة، وحين قررت أمريكا سنة ١٩٧٨ لأسباب أمنية إغلاق القاعدة الجوية، ونقلها بعيداً عن حدود أفغانستان المضطربة، لم يجد الأب عملاً لفترة، وحين تلقى تهديدات بالقتل من يساريين متشددين بسبب عمله السابق مع الأمريكان، سافر للعمل في دبي، مجبراً على فراق طارق الذي كان في الثامنة من عمره.

لم يختلّ استقرار الأسرة المادي، بفضل ما كان يرسله الأب من أموال منتظمة، وحين استبد به الشوق إلى أسرته، قرر العودة لزيارة أبيه وأمه المريضين، مخططاً للعودة بعدها إلى دبي مصطحباً زوجته وابنه، لكنه تعرض للقتل في وضح

النهار أمام ابنه في اليوم الثامن من رحلته. بعد أن استوعبت الأسرة هول الفاجعة، سافر طارق مع عمه إلى دبي التي أقام فيها ٢٢ سنة، عمل خلالها كعمه في اسطبلات الخيول التي يمتلكها وجيه أمثل، كان يمتلك أشياء كثيرة من بينها مؤسسة خيرية، استغلها العم وطارق فيما بعد لإرسال تبرعات للمحتاجين من الأقارب.

كان طارق يظن أن الحياة ستصفو له إلى الأبد، لكنها طربَقَت على رأسه، حين رُزِق بطفل صغير يعاني من متلازمة داون، فأصبح مطالباً بإلحاقه بمدرسة يدفع فيها آلاف الدراهم كل سنة، لم يكن قد قصر في تعليم ابنه وابنته الذين سبقا ملاكه الجميل المُبتلى، وحين بلغ ابنه الأكبر سن الرشد الذي يؤهله للعمل، فشل في الحصول على إقامة له، وأصبح مهدداً بالترحيل من البلاد، لتكتمل المصائب بتعرض رب عمله لأزمة مالية طاحنة، جعلته يقرر بيع خيوله وبعض مؤسساته وتجميد نشاطه الخيري إلى حين.

لم يجد طارق أمامه فرصة سوى السفر إلى أمريكا التي كانت من قبل سبباً في مقتل أبيه، ثم صارت سبباً في إغاثة ابنه الذي ألحقه بمدرسة متخصصة مجاناً، فكان ذلك كافياً لتحمل مطحنة الحياة التي أجبرته على العمل في وظيفتين كل يوم، ودفعت بابنه الأكبر إلى تأجيل أحلامه التعليمية

للعمل في مطعم بيتزا، في حين دعمت الأسرة تفوق الابنة التي أصبحت باحثة واعدة في علم الجينات، يحلم أن تساعد يوماً ما في اكتشاف علاج لما ابتُلي به أخوها، وعقار يساعده على ألا يرى في كوابيسه أبداً صورة مخ أبيه متناثراً على الأسفلت.

بعد الإخصاب!

أعطاني البواب البريد الذي أرسلته لي إدارة الصحيفة، ثم قال بجدية أقلقتني لأنها غير معهودة منه: «في جماعة صعايدة، راجلين وست، عايزينك تحت في حاجة بيقولوا إنها مهمة، بس مش عايزين يقولوا لي عايزينك في إيه، مع إني قلت لهم إنك لسه نايم الساعة دي، بس أصروا إنهم مش هيمشوا إلا لما يشوفوك»، قبل أن يضيف في تخابث معهود: «على فكرة شكلك لو ما نزلتش هما اللي هيطلعوا لك، ودول بلدياتي فما تآخذنيش مش هاقدر أبمبك معاهم».

لم نكن قد وصلنا الثانية عشرة ظهراً، ولم تكن الدماغ قد أفاقت بعد لشكل اليوم ولونه، لذلك طلبت منه أن ينزل ليطلب منهم انتظاري نصف ساعة أو نحو ذلك، حتى أفوق من نومي الذي قطعه بترزيعه على الباب، فوعدني أنه سيستغل موافقتي على لقائهم لكي يفهم منهم سبب زيارتهم المفاجئة ويعود لإبلاغي به، وهو ما لم أتوقع حدوثه من فاشل مثله، لذلك أخذت أسائل نفسي في الطريق إلى الحمام عن سبب تلك الزيارة، خاصة أنني لم أكتب منذ فترة شيئاً عن الصعيد، ثم تذكرت أن آخر ما كتبته عنه كان هجوماً قبل عام على حملة إعلانية اعتبرتها تشجع على نشر ثقافة التسول في الصعيد، وهو ما جلب لي بعض الرسائل الغاضبة

التي اتهمتني بأنني لا أرحم ولا أرغب لرحمة ربنا في أن تنزل على الفقراء، وبما أن ما كتبته لم يحدث أي أثر في الواقع، حيث تضاعفت حملات الشحاتة التلفزيونية وتنوعت ولم تعد تفرق بين «بحري وقبلي»، فقد استبعدت أن يكون للزائرين علاقة بذلك الموضوع، وفكرت للحظات أنه ربما كان وراء الزيارة مقلب دبّره أحد أشد أصدقائي الصعايدة غتاتة، لكنني تذكرت تعاهُدنا على هجران المقالب ثقيلة الوطأة، بعد أن أفضَت من قبل إلى غَمّ غير مرغوب.

ارتديت ملابسي وأعددت المكان لاستقبال الضيوف، ثم ذهبت إلى البلكونة لأطل منها على الشارع، فوجدت البواب واقفاً مع رجلين يرتدي أحدهما عمّة وجلباباً، بينما يرتدي الآخر بدلة كاملة، وعلى مقربة منهما جلست على الرصيف سيدة ترتدي عباءة سوداء، وتضع يدها على رأسها كأنها تشكو من الصداع، رفع البواب رأسه فوجدني أقف في البلكونة، نبههما إليّ، فأشار ذو البدلة لي بالتحية بحرارة ناضحة بالود المحرِج، أشرت إلى البواب أن يصعد بهم إلى الشقة، فأشار لي بعلامة الرفض، وتبعه الإثنان في ذلك مشيرين إليّ بأن أنزل لهما، فعاودت إشارتي بالصعود، ليهتف ذو البدلة: «والله العظيم ما ينفع.. احنا قاعدين هنا في انتظارك»، لترفع المرأة وجهها نحو البلكونة، فيبدو لي أنها لا تعاني فقط من الصداع، بل من إرهاق وزهق، كنا نزيدهما

بتبادل إشارات الدعوة إلى الصعود والنزول.

في ركن ظليل من الشارع، أقسم لي ذو البدلة بأيمانات المسلمين ورحمة الغاليين وعهد الله، أنه لم يكن يمكن أبداً أن يرتكب حماقة «الطَبّ على بيوت الناس دون موعد» لولا الشديد القوي، وأنه متعلم ويعرف الأصول لكن للضرورة أحكامها، وأنه يؤمن أن تيسير الله تعالى له بأن يصل إلى بيتي، بشّره أنني ربما كنت سبباً لحل مشكلته هو وهذه المسكينة، التي اتضح أنها زوجته وأم بناته، والتي لم يكن ليرضي ربنا ولا يرضيني طبعاً، أن تخبط مشوار العودة المرهق إلى سوهاج، دون أن يشوف لها صِرفة، مع أولاد الكلب النصابين الذين يملأون هذه المدينة الملعونة، ويظنون أنهم يمكن أن يفلتوا بنصبهم واحتيالهم على الشرفاء الغلابة الذين ليس لهم ظهر، ناسين أن من لا ظهر له فالصحافة الشريفة ظهره وسنده، أو هكذا كان يظن.

كان ذو البدلة الكاملة واللسان «البَرَبَنْد»، قد شعر بارتباكي فور قدومي نحوهما، فاختار طمأنتي بإخباري أنه عرف عنوان بيتي بالصدفة، بعد أن ذهب إلى الصحيفة الكبيرة التي كنت أكتب فيها عموداً يومياً لقي حظه من الانتشار، ولأنه كان من متابعي العمود وقرأ أكثر من قضية أثرتها فيه، وتلقيت عليها ردوداً من المسئولين، فقد كنت أول من فكر

فيه حين وقعت أزمته، ليتجه مباشرة إلى الصحيفة، التي فوجئ ليس لي مكتب فيها، وأنني أرسل مقالاتي من خارجها، وحين نشبت أمام مكتب الاستقبال مشادة بينه وبين زوجته وابن عمه تاجر الفاكهة المقيم في الزيتون منذ سنين، بسبب المشوار المرهق الذي طلع على فَشوش، وبسبب عدم استجابته لرأيهم في عدم عقلانية الفكرة، تدخل بلديات آخر لهم، هو المندوب الذي كانت الصحيفة ترسله إلي كل يومين أو ثلاثة بما يصلني من بريد، وحين عرف القصة أثارت تعاطفه، فانتظرهم حتى خرجوا، ثم اختلى بصاحبنا وقال له إنني أسكن بعد الصحيفة بثلاثة شوارع، وأنه ذاهب ليوصل لي البريد، وأنه سيصطحبه إلى منزلي حيث لن أتأخر عن أي مساعدة أستطيعها، وأنه سيوصي به البواب خيراً.

كانت تلك المرة الأولى التي أتعرض فيها لزيارة منزلية مفاجئة من قارئ لا أعرفه، ومع ذلك فقد جعلني حرجه الشديد والإرهاق البادي على زوجته، أكرر له أن الموضوع بسيط ولا يستحق كل هذه الاعتذارات، وأنه يجب أن يصعد مع ابن عمه والمدام لشرب الشاي والراحة قليلاً، بدلاً من أن نتكلم في الشارع، لكنه حسم الجدل بحلفان قاطع بالطلاق والعتاق، أن ذلك لن يحدث أبداً، فيكفيه ما يعانيه هو والجماعة من حرج، لإقلاقي بهذه الطريقة، ليعود في الوقت

نفسه للتأكيد من جديد على أنه لم يأتِ لطلب فلوس أو مساعدات «لأنها مستورة والحمد لله»، ومع أن تلك الديباجة لا يستخدمها بإلحاح في العادة إلا طالبو السلف أو المساعدة، إلا أن أخانا السوهاجي بعد أن عرف نفسه بوصفه يعمل مديراً بمنطقة آثار في سوهاج، أخرج محفظته من جيب الجاكيت وفتحها ليريني أنها ممتلئة بالأوراق النقدية، في حركة لم يكن لها لازمة، لكنه شعر بالارتياح حين قام بها، في حين كنت أشعر بالقلق عما إذا كان وراء تلك الزيارة أمر له علاقة بالآثار، لأن ذلك أعاد إليّ ذكرى تجربة سابقة لم تكن لطيفة بالمرة.

لم يكن مناسباً أن يتواصل حديثنا في الشارع، ولأن القهوة التي تحت بيتي ليست سوى «خُنّ» بعَرض ثلاثة بلاطات، به نَصبة صغيرة لإعداد المشروبات، ودِكّتان يجلس عليهما دائماً سائقو الجراج الحكومي المجاور، أخذنا بعضنا إلى الشارع المجاور لنجلس على قهوة به أوسع بكثير. على غير العادة لم تكن القهوة مزدحمة بالطلبة المزوّغين من المدارس المحيطة، والموظفين «الكاتتين» من مكاتب الوزارات القريبة، وهو ما جعل توتر زوجته وحرجها أخف. فور جلوسنا عاجلته بأيمان مغلظة أني سأدفع مشاريب القهوة، مضيفاً لتلطيف الأجواء أن والدتي أصلاً من سوهاج، ولن يرضيه غضبها حين تعرف أني اصطحبت ضيوفاً مروا ببيتي

إلى القهوة، ثم تركتهم يدفعون المشاريب، لتكون مداخلة ابن عمه الأولى سؤالاً مباغتاً: «منين في سوهاج إن شاء الله؟»، ولأنني كنت قد نسيت اسم بلدة جدي، فقد استعنت بإجابة: «من سوهاج نفسها»، لأتبعها بسؤال: «تحب تشربوا إيه؟».

لم ينتظر بلديّاتي نزول الشاي للدخول في الموضوع، ليفاجئني بأن شكواه التي خبط من أجلها المشوار، لا علاقة لها بكل ما تصورته من قضايا الفساد وإهدار المال العام والمظالم الجسام، وسائر ما تعودت أن يأتيني في رسائل البريد، إما مدعماً بالمستندات المغرية بالنشر، أو مجهلاً حافلاً بالمعلومات المحيرة من فرط ما بها من تفاصيل يستحيل التحقق منها، أو كيدياً حافلاً بما يستحيل نشره من الاتهامات والشتائم.

حين بدأ حديثه بصب اللعنات على دكتور شهير كان يمتلك مستشفى ناجحة في منطقة الدُقّي، تصورت أن الأمر له علاقة بتجارة الأعضاء، وعزوت إرهاق الزوجة إلى وقوع ما لا يحمد عقباه في جنبات المستشفى، لكنه فاجأني بأن الأمر له علاقة بقدرات مضمونة في تحديد نوع الجنين، تحدث عنها الدكتور الشهير في برنامج تلفزيوني طبي تذيعه كبرى القنوات الحكومية، ولأن صاحبنا كان قد أنجب من زوجته أربع بنات على التوالي، وكان راغباً بشدة في أن يرزقه الله

بولد، طالما ظلت زوجته قادرة على الإنجاب والحمد لله ـ هكذا قال دون أن يلفت انتباهه وجود أي تناقض في حديثه ـ فقد قرر أن يتصل فوراً بالدكتور وهو على الهواء، ليداوم هو وزوجته وأختها ووالدتها ووالدته وأختاه على عمل نوبتشيات طيلة الأيام التالية، لمحاولة الاتصال بأرقام البرنامج، حتى ردت عليهم بعد عناء مُعدة البرنامج التي اكتشفوا أنها سوهاجية أيضاً، ولذلك منحتهم رقم عيادة الطبيب، ولكي يردوا لها الجميل بمساعدتها في مهمتها، دخلت أخت الزوجة على الهواء لتسأل الضيف طبيب الأمراض الجلدية عن أفضل طريقة لإزالة الهالات السوداء من تحت العين.

تمكن الزوج من الحديث مع الطبيب الشهير، بعد أن أقسم لسكرتيرة العيادة أنه يتصل من سوهاج، ولن يستطيع الحضور إلى القاهرة إلا بعد أن يسأل الدكتور كذا سؤال على التليفون، ليقرر بعدها الحضور من عدمه، وأسعده أن يكون الطبيب الأسيوطي ابن الحلال متجاوباً مع أسئلته، خصوصاً ما تعلق منها بتكلفة عملية الحقن المجهري التي قال له إنها ستكلف عشرة آلاف جنيه، وهو رقم كبير بمقاييس مستواه المادي، ومقاييس تلك الفترة التي لم يكن الجنيه فيها قد أدركه غرق التعويم، ليتخذ من تلك المنطقة في الحكاية مدخلاً للتأكيد على شرفه المهني، وأنه ليس له سوى مرتبه

وحوافزه، وليس كبعض مفتشي الآثار الملعونين في كل كتاب، ولذلك فقد اضطر للاقتراض لإكمال المبلغ، رافضاً اقتراح زوجته الأصيلة ببيع بعض ذهبها، ليسافر مع زوجته في الموعد الذي حدده الطبيب والذي تصادف مع أوائل شهر رمضان، ليكون أول رمضان يقضيانه بعيداً عن البيت والعيال، كان الطبيب قد أفهمه أنهما سيحتاجان حوالي أسبوعين متواصلين للتردد على المستشفى الذي سيتم فيه الحقن المجهري، ولذلك لجأ إلى أهله وأهل زوجته لتدبر أمر بناته، ولولا أن ابن عمه الأصيل شاله طيلة تلك الفترة، لكان قد احتاس هو وزوجته في تدبير تكاليف الإقامة في هذه المدينة الملعونة التي «ما تآخذنيش تشفط الفلوس ولا أجدعها وأوسخها بلاعة».

بعد يومين من أول كشف قام به الطبيب، اتضح أن مبلغ العشرة آلاف جنيه كان مجرد جر رجل، وأنه لا يتضمن تكاليف التحاليل والحقن والأدوية والمقويات وسائر «الحبشتكانات» التي كتبها الطبيب في عدة أوراق أسماها خطة العلاج، ليضطر هو وابن عمه إلى زيارة قريب ثري في المطرية، لم يكن قد لجأ إليه من قبل، وحين كفاه الله ذل السؤال بأن أنزل على قريبه لطف الدنيا وذوقها، فقابلهم أحلى مقابلة، ومنحهم ما يطلبونه دون عَنَت، أحس أن الله تعالى يعلن له رضاه عن سعيه، وأنه لن يرده هو وزوجته إلى

سوهاج إلا «مجبورين الخاطر».

حين كنت أفكر في الطريقة التي أقنع نفسي فيها بألا جدوى من التأكيد لأخينا أنه رجل تافه، يرى في خلفة البنات نقصاً ما، لن يكمله إلا قدوم ولي عهد يرث مملكته، قرأ هو على وجهي مللاً ما أو انفصالاً عنه، فقرر اختصار حكيه لتفاصيل مرحلة العلاج وما صاحبه من «فحص ومحص وتحاليل وشخاليل»، قال لي إنهم حين اتصلوا بالمستشفى في الموعد الذي حدده لهم الطبيب، لمعرفة نوع الجنين بعد الإخصاب، طلبت منهم المساعدة الحضور إلى المستشفى، وهناك قالت لهم ـ بعد أن طلبت الحلاوة ـ إن الجنين «بنت إن شاء الله»، فسقطت زوجته مُغمىً عليها، واندفع شاخطاً في المساعدة، وسائلاً عن الطبيب الذي وعده بولد، مذكراً بالمبلغ الذي دفعه، وبأنه لم يجيء كل هذا المشوار من أجل بنت لديه أربعة مثلها في البيت، مستدركاً ـ حين رأى في عينيّ ضيقاً لم أتمكن من مداراته ـ أنه يحب بناته ويموت فيهن، لكنه يعني ولا مؤاخذة لم يكفر، حين قرر أن يسلك سبيل الطب والعلاج، بدلاً من اللجوء إلى السحر والشعوذة.

كنت على وشك أن أسأله بانفعال لا يخلو من القرف، عن سر حرصه المحموم على إنجاب الولد، لكنني أجلت السؤال حين انفجرت زوجته في البكاء بصوت عال، ليتكهرب جو

القهوة، حتى أن القهوجي من ارتباكه أطفأ التلفزيون الذي كان يعرض مباراة معادة في الدوري العقيم، ليسود القهوة صمت مطبق، تشاغلت عنه بمحاولة تأمل ابن العم الذي أمال رأسه إلى الخلف ورفعه نحو سقف القهوة، وظل على ذلك الحال حتى سكتت الزوجة، حين مد زوجها يده ليطبطب على كتفها للحظات، ثم يحولها نحو كوب الشاي، ليأخذ منه شفطة، ويطرق برأسه إلى الأرض المكسوة بنشارة الخشب.

لبثنا في الصمت للحظات، قبل أن يقطعه مكملاً حكايته ومحاولاً السيطرة على غضبه: «لما سألت الدكتور ابن الحرام ليه قلت لنا إنك متأكد من نتيجة الإخصاب، ليه ادّيتنا أمل وكذبت علينا، ده أنا كنت ناوي إني يوم ما أعمل جمعية تبقى لفلوس جهاز البنت الكبيرة، أصلها خلاص هتتخرج السنة الجاية من كلية العلوم، يقوم الله يحرقه، يقول لي معلهش تعال نجرب تاني، وهاعمل لكم خصم نص المبلغ، وأول ما توفروا الخمسة آلاف جنيه أنا تحت أمركم، والله ما دريت بنفسي، قمت حادفه بكوباية المية وللأسف ما جتش فيه، زي ما يكون كان مستنيها، وسبحان من بعدني عن زمارة رقبته، ولولا إني خفت على الغلبانة دي من البهدلة ما كنت سبت مكتبه، عشان كده قلت آجي لك توصل صوتنا للمسئولين، ليه يخلوا حد زي ده ينصب على الناس، وإزاي سايبينه يطلع في التلفزيون يصطاد الناس كده بالساهل، وإزاي يسمحوا له

يعلن عن النصب ده في الجرايد، وشوف كم واحد زي حالاتي وأصعب من حالاتي، اتنصب عليه وعمل البدع عشان يجري ورا أمل كداب، طبعاً أنا لو رحت أعمل له محضر هيقولوا لي القانون لا يحمي المغفلين، والعلم ما يضمنش النتايج والكلام الفارغ اللي الكلب ده قعد يقولهولنا، فما قدامناش غير الناس الشرفاء اللي زيك، انتو أملنا بعد ربنا».

كان قد لاحظ دون شك أن قسمات وجهي اختلفت، وأنني لم أعد حتى أهز رأسي تأميناً على كلامه، كما كنت أفعل في البداية، فأخذ يكرر مديحاً في حقي، يمزجه بحديث عن بعض مقالات كتبتها، ليثبت أنه قارئ متابع لي بالفعل، وأن اختياره لي لم يكن من فراغ، وحين أنزل ابن عمه رأسه من تحديقته الطويلة في السقف، ووجّه نظره إلي، شعرت أن أي تدخل بالسؤال أو النقد أو الوعظ أو اللوم، سيحولني إلى هدف أكثر سهولة من الطبيب، فتريثت مفكراً فيما يجب أن أبدأ بقوله.

كان أكثر ما استفزني في كلامه حديثه عن ابنته التي ستتخرج من كلية العلوم في السنة القادمة ـ فقد كنت أظن أن بناته أصغر من سن دخول الجامعة ـ وأنها يحتمل أن يتم تعيينها معيدة في الكلية، فلم أجد ما أعلق به سوى غمغمات، ظنها دعاءً لها وتهنئةً له، مع أنها خرجت من ضميري شتيمة

له وإشفاقاً عليها، ليعاجلني بقوله: «ابن عمي بيقولي مش لازم نسيب حقنا من الدكتور الكلب، وانت عارف بقى الأذى ليه طريقه وناسه، والمدام بتقول ندعي عليه ونشتكي لربنا، بس أنا ما ليش في الأذى ولا الدعا وحده هيريحني، وشايف إن فضيحته قدام الناس هي أسلم حل، وإننا في الآخر غلطنا لما صدقناه عشان طلع في التلفزيون، وكان لازم نسأل عليه كتير قبل ما نروح له».

كان بداخلي كلام كثير لعلك تتخيله، ولعلك تشاركني الرأي أن توقيته لم يكن مناسباً فضلاً عن انعدام جدواه، مع رجل يرى أن غلطته الأبرز، كانت عدم السؤال عن الدكتور قبل أن يترك له تحقيق حلمه في الولد، لذلك استجمعت كل ما أملك من مهارات اجتماعية، رأفة بزوجته وخوفاً من يد ابن عمه الطرشة، ووعدته بأنني سأسعى مع الزميل المتخصص في تغطية وزارة الصحة، ليقدم شكوى رسمية في الطبيب، لمنعه من الظهور في وسائل الإعلام الحكومية وتشكيل لجنة للتحقيق معه ومع أمثاله.

ولكي أريح ضميري المحتقن، أضفت قائلاً إنني سأوصي رئيس التحرير بتكليف الزملاء في قسم التحقيقات لعمل تحقيق صحفي موسع عن تعلق الناس بأوهام تحديد نوع الجنين وتحوله إلى تجارة ونصب لا ينبغي أن ينخدع بها

الناس بسهولة، ثم أخذت رقم هاتفه ليتصل به الزملاء، وقلت إنني لا بد أن أنصرف سريعاً لإحضار بناتي من المدرسة، وحين قال كلمة مجاملة، رددت عليها أنه بالتأكيد يعرف أن أحلى خلفة في الدنيا هي خلفة البنات، ثم سلمت عليه وعلى ابن عمه، ونظرت إلى زوجته المرهقة وقلت لها عبارة كنت قد فكرت فيها كثيراً: «ربنا يصبرك ويعينك ويستجيب لدعواتك»، ومضيت متصوراً أنها ستفهم مقصدي، الذي أجدت تشفيره في ثنايا كلامي.

من رسالة إلى المُشتهاة!

«من قد إيه كنا هنا؟»، طبعاً فاكر، من شهر يونيو قبل ٥ سنين. تغضبين لأني أنسى اليوم بالتحديد، لكنك تتناسين كيف هجرتني بعد ذلك اليوم، فظللت ثلاث سنوات، لا أراكِ ولا أسمع منك أبداً، ومجرد ذكر كلمة «أبداً» الآن، يجعلني أرتعد هلعاً، حين أتذكر أننا كان يمكن ألا نلتقي ثانية أبداً، ثم أرتعد مجدداً، لأنني أدرك أننا حتى وبعد لَمّ شملنا، نعرف أن لقاءنا لا زال مهدداً ألا يدوم أبدا.

«ياريت هنانا دام لنا»، تعرفين؟، مأمون الشناوي لم يكن يبحث عن النكد بمنكاش، حين اختار أن يختم كلمات أغنيته بتلك العبارة المقتطعة من خام الحسرة، والتي أعكر بها دوما صفو ساعاتنا التي نخطفها «والدهر غافل عننا»، يعرف العم مأمون بحكم السن والخبرة، أن الدهر لا تدوم غفلته عن المحبين. ذات مرة لم تفهمي مقصدي، حين قلت بعبث صبياني سخيف إن الدهر في حقيقة الأمر «بائع بوص رزيل»، وكم باع بوصاً لمن لا يرغبون بضاعته ولا يطيقونها، وأنت نظرت لي بعينيكي «العين جمليّتين»، وقلتِ لي بحيرة: «أنا مش فاهمة منك ولا كلمة»، وأنا فرحت لأنك نجحتِ في امتحان الأخلاق الذي لم أكن أعرف بعد أنه شديد التفاهة، وطلبت منكِ أن تدعي لنا في صلاتك، أن يكفينا الله شر

الدهر.

تسأليننني: «إنما انت هترجع تصلي إمتى»، فأقول عابثاً إنني سأبدأ الصلاة فور انتهاء فعاليات شهر العسل المنتظر، لأنني أكره الإستحمام في الشتاء، فتقررين تأديبي باسترجاع كل «كلمتين في العضم»، قالتهم لكِ الحاجّة أمكِ مؤخراً، وأنا كعادتي اخترت أن أتسامى كغاز متطاير، فوق تفاصيل الشقة والعفش وبوص الدهر، لأقول «ولا مؤاخذة لقطع كلامك» أن مأمون الشناوي حين قال لحبيبته فجأة، وبما لا يتسق مع السياق العام للأغنية: «وإن كنت خايف م الظالم..الظلم والظالم راحوا»، كان يعني أمكِ تحديداً، وأنني سآخذ كلامه كبشرة خير أكيدة. تغضبين لأنك تحبين أمك، وأنا وحياة أمك، ليس لدي موقف عدائي منها، أنا فقط ضد استغلال الإنسان لخطيب ابنته الإنسان، ضد هراء الطبقة الوسطى البضين، ضد هلاوس الترقي الإجتماعي، ضد مفهوم «راجل يعيّشك في مستوى أحسن من مستواكي»، ضد هدر الطاقة الإنسانية في تفاصيل سيتكفل بائع البوص الرزيل بتحويلها يوماً ما إلى مسخرة مبكية الإبتذال.

أصدرتْ الآن ذلك الصوت الحلقي الذي «يقفلك مني»، حين تذكّرتني وأنا أجلس أسفل شباكك، في منتصف تلك الليلة، في وسط تلك التي كانت حديقة قبل أن تتحول إلى مقلب

زبالة، وأنا أغني لكِ عبر الموبايل: «وتحت شباكك يرميني الحنين، حيران باقدّم خطوة وأرجع خطوتين، أنا عايز أشوفك بس وأمشي من سكوت»، قبل أن تقطعي اندماجنا وتقولي بهلع: «حاسب في كلب إسود واقف وراك»، وأنا اعتبرت الدخول المفاجئ للكلب الأسود علامة على الفشل الأكيد: فشلي في جعلك تحبين محمد عبد الوهاب من قبل، وفشلك في إقناعي بحب مجمل أعمال محمد محيي.

جريتُ ساعتها أبعد مسافة ممكنة عن الكلب الأسود المريب، وعن شارعكم الكئيب الذي لا أحب فيه سواكِ، ثم اتصلتُ ثانية وقلت لك أنني أستطيع الآن بالذات أن أصرخ قائلاً: «سامعاني ياللي فوق سامعاني.. أنا الحبيب الأولاني»، دون أن يستيقظ الحاجّ ويخرب الدنيا، وأنت مشكورة لم يرضيكِ أن أعود إلى بيتي مكسور الخاطر، فقلتِ أنني لست الحبيب الأولاني، «إنت الحبيب، نقطة في آخر السطر»، وأنا لولا مخافة سور وزارة الدفاع القريب، كنت على وشك أن أصرخ «أنا الحبيب ونقطة في آخر السطر يا مجتمع وِسِخ ومنحط»، لكنني استبدلت الصراخ بالقسم، فأقسمت أنني «هاتغيّر عشانك»، سأحاول جاهداً حُب المزيد من مُحيي، لن أركب تاكسي إلى البيت توفيرا للنفقات، سأركب من أجلكِ الميكروباص ولو «رابع ورا»، سأجلس من أجلكِ على الكرسي القلّاب، سألِمّ الأجرة وأعيد الباقي للجميع مع أدفأ

الإبتسامات وأعرضها، وسأتسامح مع كل الركاب، إلا لو قررت يد عابثة أن تمتد إلى حزام عفتي، بعد أن فهِمت مودتي المفرطة خطئاً.

تعرفين؟ برغم كل ما جرى أول أمس، أود أن أعرب عن امتناني للحَسَنات الثلاثة، اللواتي يسكنّ أعلى ذراعك الأيسر، بزاوية مائلة تنم عن إعجاز الخالق فيما خلق، غضبتِ حين قلت لك إنني يجب أن أقبلهن فورا، تقرُّباً إلى الله، لأن الحسنات يذهبن السيئات، آسف لأن الحاجّ دخل الغرفة فجأة، وأنا ممسكٌ بذراعك، وآسف لأن فكرة أنني كنت أقيس قُطر ذراعك لم تقنعه، وهو محق في ذلك لأنني لم أشتغل عليها فترة أطول، وآسف أكثر لأن الاختلاء المشروع الدائم بحسناتك التي لم أحط بجميعها علماً، أمر معقد إلى هذه الدرجة، وبما أنك تكرهين لعن الدهر، لأني «مش ناقص سيئات»، دعيني إذن أختم بلعن بائع البوص الرزيل، الذي قرر أن يحول إلى الأبد بيني وبين حسناتك.

فعلاً والله، «ياريت هنانا دام لنا».

... وقصص نحيلة

مصائب قوم

فوجئ الجميع بتبدُّل أحواله الدراسية في آخر سنتين له بكلية الحقوق، نجح في كليهما بتفوق، بعد أن كان «التبليط في الخط» حاله وديدنه، يكفي أنه قضى ثلاث سنوات متتالية يحاول عبور الفرقة الثانية التي بدت له أحياناً نهاية الدنيا. الكل اتهم المخدرات التي أدمن أشد أنواعها فتكاً بالدماغ، وقد كانوا محقين في ذلك، لكنهم لم يدركوا أنها أيضاً كانت سبباً في نجاحه، فبفضلها كانت كل أسئلة الامتحانات تأتيه قبل موعدها، مصحوبة بالإجابات النموذجية، مقابل أن يكتم سراً وحيداً، لم يكن يحتاج إلى توقيع شيكات وكمبيالات على نفسه لكي يلتزم بكتمانه، لكن خوف صاحب السر من الفضيحة كان أقوى من أي اعتبار، وذلك الخوف أعان صاحبنا على تخطي عقبة الحصول على الشهادة الجامعية قبل فوات الأوان القانوني، بل وضمن له مستقبله المهني، حين جلب له وظيفة صورية دائمة في مكتب المحاماة الذي يمتلكه وكيل الكلية، والذي لم يكن أحد ليتصور أبداً أنه كان زميل صاحبنا في المصحة التي كان يفترض بها أن تعالجه من الإدمان، ظل صحب المركز المرموق يتأرجح بين أنواع المخدرات ويتردد على أطباء

وأخصائيين مختلفين، لكنه ظل زبوناً وفياً لـ «ديلره» القديم الذي لا ترتاح دماغه إلا لديه، لكنه لم يعد بحاجة لمخاطرة التعامل معه مباشرة، فقد كانت تلك مهمة صاحبنا الوحيدة في مكتب أستاذه الذي نجح في كل شيء إلا «التبطيل».

تيّار وَعْي

أخذت أنظر إليها متصنعاً التأثر، وهي تشكو لي من حيرتها وأساها، لأن الشاب الذي تحبه لا يرد على مكالماتها، كنت أجاهد لكي أخفي كل ما بداخلي نحوها من ولع ووله وشغف واشتهاء، وكلها مشاعر لو تركت لها العنان لما اكتفت باحتلال وجهي فقط لتفضح ما بداخلي، بل لتدفقت على لساني دون أن تعبأ بأي مصير محتمل، ولم يمنعني من ذلك التدفق الحالم إلا خطوبتان كريهتان وثلاث زيجات فاشلة.

خيالات مقيمة

أصبح الخروج معه مكلفاً ومزعجاً، منذ أن صارت كل مقاهينا القديمة بالنسبة له مرفوضة، لأنها تحتوي على كراسي خشبية أو كراسي ذات قوائم معدنية، حتى «الكافيه» الذي استقر عليه أخيراً ليكون مكاناً للقائنا الأسبوعي، لم نصل إليه بسهولة، وإنما بعد أن عبرنا بأربع أو خمس كافيهات، رفضها كلها لأنها تخلو من «الكَنَب» وتُجلس زبائنها على الكراسي، التي أصبحت بالنسبة له من المحظورات.

كان لا بد أن يخبرنا بسر تلك الكراهية المباغتة للكراسي، لكي نتجاوب معه في مشاوير البحث عن «كافيه» لا كراسي فيه، ولولا أننا وجدنا السر وجيهاً لكان لنا معه شيء آخر، لكن المشكلة أننا أصبحنا جميعاً لا نطيق الجلوس على الكراسي في أي مكان، وما إن نجلس عليها حتى تداهمنا تلك الصورة البشعة التي نرى فيها أحداً ما يمسك بقوائم الكرسي، ويقوم بغرزها بوحشية في كعوب أقدامنا، فتقشعر أبداننا من هول الخيال المقيت، الذي بدأ يستولي على صديقنا، منذ أن قرأ مذكرات معتقل سياسي، تحدث فيها عن تفاصيل التعذيب البشعة التي تعرض لها من زبانية الأمن، الذين أدركوا بالتجربة بشاعة آلام الضرب بجسم حاد على الكعبين،

وللأسف لم يحتفظ صديقنا لنفسه بما قرأه، ولكي لا ننفرد بعذابنا الذي نقله إلينا، أصبحنا لا نترك أحداً إلا وحكينا له ذلك الخيال الذي يسخر منه البعض في البدء، قبل أن يكتشفوا قدرته الشيطانية على التسلل إلى الرأس والكعبين.

قضية عامة

دخلت صديقتنا إلى نقطة شرطة الزمالك وهي تُقدِّم فخذاً وتؤخر أخرى، فقد كانت تلك المرة الأولى التي تدخل فيها مكاناً له علاقة بالبوليس، زال توترها بعد أن أحاطتها حفاوة كل من في القسم، وهي حفاوة كانت تعرف أن سببها هو شكلها وملابسها وماركة سيارتها، التي سمح لها أمين شرطة لزج بركنها في المكان المخصص للضباط، قبل أن يصطحبها متقافزاً حولها بفرحة للقاء الضابط المناوب، وبعد أن أخذت رشفة من فنجان القهوة الذي ألح الضابط في عمله لها من «بُنِّه» المخصوص، قالت له إنها جاءت للإبلاغ عن قضية عامة وليست شخصية، مع أنها كانت ستتضرر منها بشكل شخصي، وأن الموضوع ببساطة يتعلق بـ «نِصف رَجُل»، يفترش رصيف «مَنزَل» كوبري ستة أكتوبر المتجه إلى نادي الجزيرة.

حين استغرب الضابط تعبير «نِصف رَجُل» وظن أن له علاقة بواقعة تحرش، قالت له إنها تعني الوصف حرفياً، وأنها تتحدث عن متشرد مخيف المظهر لا يمتلك سوى نصفه العلوي لسبب ما، وأنها لكي لا يفهمها خطئاً متعاطفة مع حالته، ولا تطلب له أي ضرر، بل على العكس هي مستعدة لمساعدته بشتى الطرق، المهم فقط ألا يتم السماح له بالبقاء

في ذلك المكان، لأن ظهوره بشكل مفاجئ في مجال رؤية السائقين خلال نزولهم من الكوبري، يمكن أن يصيبهم بالذعر، فيتعرضوا لحادثة مؤسفة كالتي نجت منها بأعجوبة، حين رأته فجأة أمامها، فكادت ترتطم بحاجز الكوبري، مضيفة أنه إذا لم يكن هذا المسكين يخاف على نفسه، فمن باب أولى أن تخاف الدولة عليه وعلى السائقين وعلى حاجز الكوبري، والضابط حدثها طويلاً عن معاناته مع المتسولين والمتشردين الذين أصبحوا على كل صنف ولون، ثم اتخذ من السؤال عن مهنتها مدخلاً إلى حياته الشخصية بعد أن شجعه على ذلك خلو يديها من مؤشرات الارتباط، وخلال الأعوام التالية لذلك اللقاء أصبح لديها قصة ثابتة تسعدها وتصدعنا وترضي غروره كلما روتها، وكثيراً ما كانت ترويها، قصة تبدأها بعبارة «تشويقية» تشبهها، تقول إنها بفضل نِصف رجُل تعرفت على أعظم رجل في الدنيا.

قدّر ولَطَف

بابتسامة عذبة زيّنت ملامحه الوقورة، قال لي إنه ظل غاضباً مني لسنوات، ثم تبدل غضبه مني بعد ذلك إلى امتنان عميق ومزيد من المحبة، لم أطلب منه شرحاً لما قاله، فقد تعلمت بالتجربة ألا أدخل في التفاصيل حفاظاً على الوقت وصوناً للمزاج، لكنه بادرني بالإجابة، وهو يسرع في كلامه، لكي نلحق بالقطار الذي لاح من بعيد قادماً نحو المحطة: «كنت بعثت لك من كذا سنة رسالة عن ابني طالب الهندسة اللي استشهد يوم جمعة الغضب في طنطا، كان عنده ١٩ سنة، بعثت لك مع الرسالة صورته وشهادة الوفاة وتقرير الطب الشرعي، وقلت لك يا ريت تتبنى حملة إنهم يطلقوا اسمه على المدرسة اللي درس فيها، مدرسة حسني مبارك الإعدادية للبنين اللي في شارع توت عنخ آمون في طنطا، عشان ما ينفعش مدرسته يفضل عليها اسم اللي قتله، كنت بازعل منك جداً لما تكتب عن كذا شهيد من بتوع القاهرة، وتنسى إنت وزمايلك شهداء الأقاليم، إحنا استُشهد عندنا في طنطا ٢٥ شهيد وما حدش افتكرهم، قلت ممكن تكون الرسالة ما تكونش وصلتك بالبريد، خليت بنتي تبعتها لك على الإيميل، وبعتنا معاها الصورة برضه، كان نفسي صورة ابني تتنشر في جرنان زي غيره، لعل يوم حد يفتكره وحقه

ييجي».

كان القطار قد توقف على الرصيف، ولم يكن الوقت يحتمل مزيداً من الشرح، ولذلك قرر أن يختم كلامه بالمختصر المفيد: «طبعاً انت فاهم دلوقتي ليه ما بقيتش زعلان منك وليه باشكرك إنك ما نشرتش الرسالة»، في الحقيقة لم أكن قد فهمت مغزى كلامه لأنني أقسمت أنني لم أتلق رسالة كهذه وإلا كنت نشرتها، وقبل أن أسترسل في ذكر أمثلة على تيه الرسائل الورقية والإلكترونية، قاطعني مطلقاً ضحكة عصبية وقال: «خلاص يبقى نشكر ربنا إنه كرمنا والرسالة ما وصلتكش، لإن لو كانت وصلتك ونشرتها، كان زمانهم طلّعوا أحمد من القبر وضربوه بالرصاص تاني»، ثم ربّت على كتفي داعياً لي بالخير، وابتعد.

في ذكر ما يبقى

احترم المحيطون بها جلال حزنها، ولذلك أرجأوا سؤالها عما كانت تديم الإستماع إليه منذ أن رحل عنهم وعنها، ظلوا يراقبونها لأيام طويلة وهي تضع السماعة المثبتة بموبايلها في أذنيها وتغرق في صمت تختلط فيه الإبتسامات المريرة بالدموع المنهمرة، كان أغلب ظنهم أنها تستمع إلى تسجيل حميم دار بينهما يوماً ما، وقد كان ظنهم في محله، فقد كانت طيلة الوقت تستمع إلى «كليبّ» سجلته أثناء نومه لتستخدمه كرد دامغ على تقليده الساخر للأصوات التي تصدر عنها خلال نومها العميق. لم يكن التسجيل يحمل سوى صوته، صوت شخيره وهو نائم.

بأثر رجعي

قامت بفتح تطبيق الآلة الحاسبة على موبايلها، وضَرَبت ٨ في ١٥ في ٣٦٥، وحين رأت أن ناتج ضرب تلك الأرقام يساوي ٤٣ ألف وثمانمائة، ارتسمت على وجهها ضحكة مجروحة، لن يفهم مغزاها إلا الذين قرأوا في ذلك الصباح خبراً، يتحدث عن دراسة علمية أثبتت أن الإنسان يحتاج من أجل توازنه النفسي إلى ثمانية أحضان يومياً على الأقل.

توسيع نشاط

اللافتة المنتشرة في كل شارع وعلى كل عمود نور، كانت تضع رقم تليفون محمول، ومعه عبارة تقول «نشتري كل شيئ»، وبالأمس شخص ما، أضاف إليها عبارة «حتى حبيبات الآخرين».

خيال عابر

كان القاضي غاضباً لأن المتهم الماثل أمامه استخفّ بهيبة المحكمة، حين تجاهل الإجابة على أسئلة القاضي، واختار أن يضحك بصوت عال، وبرغم إصرار القاضي على أن يعرف سر ضحك المتهم، إلا أن المتهم لم يكن على استعداد للمجازفة بأكثر من حكم الحبس لمدة شهر، الذي ناله بسبب ضحكاته تلك، ولذلك لم يقل للقاضي أنه كان يضحك من قلبه، لأنه تخيل نفسه وهو يحشر المطرقة الخشبية في مؤخرة القاضي.

على أهون سبب

كان يظن مثلنا أن سعادتهما الزوجية ستكون محصنة ضد أعتى العواصف، ولذلك لم يصدق حين تطور الأمر بينهما بصورة مفاجئة ومؤسفة.

كُنّا نعرف أن طريقته في الهزار غير موفقة، وكانت هي أكثرنا معرفة بذلك، من أيام الكلية يعني، لذلك كان غريباً أن ينهار زواجهما بسبب مزحة سخيفة، قالها بعد أن ذهب إلى ورشة إصلاح الأحذية، بحذاء قديم اشتراه من لندن قبل سنوات، لم تكن تلك المرة الأولى التي يصلح فيها ذلك الحذاء الذي هتكت عرضه شوارع القاهرة، لم يكن يحرص على الاحتفاظ به لأنه دفع فيه الكثير، بل لأن تكوين قدميه كان غريباً، كانا مفلطَحين من المنتصف بشكل كان يزعجه كلما ارتدى حذاءً جديداً، وكان يزيد الحكاية تعقيداً أن قدمه اليسرى أكثر فلطحة من اليمنى، ولذلك لم يصدق نفسه حين وجد حذاءً يفهمه من أول مرة، وحتى حين قام فيما بعد بتفصيل أحذية مريحة، لم يجد فيها نفس العزاء الذي منحه لك ذلك الحذاء الإنجليزي النادر، والذي أصبح مع الوقت ركناً مهماً في حياة صديقنا، ولم يكن يعرف أنه سيرتبط بأكثر ذكرياته ألماً.

لم تكن زوجته مخطئة، حين لامته لأنه سيصلح الحذاء

للمرة الرابعة، خاصة أنه كان يحرص على الذهاب إلى صنايعي مخصوص، يمتلك ورشة صغيرة في شارع حسن صبري بالزمالك، وكان يأخذ منه الشيئ الفلاني في كل مرة، مما جعل مجموع نفقات إصلاح الحذاء أغلى من ثمنه، وربما كان هو مخطئاً، حين أساء اختيار الرد، فقال لها إن حرصه على الحذاء ووفاءه له، ينبغي أن يريحها نفسياً، لأنه يعني أنه لن يتخلص منها بسهولة، مثلما فعل بعض أصدقائهما بالآخر، ليفاجئه غضبها العارم لأنه شبهها بـ «جزمة معفّنة»، فقررت أن تثأر لنفسها باتهامه بالبخل والنتانة، وصارحته بأنها أصبحت تخجل منه كلما ارتدى الحذاء في خروجة مع أصدقائهما، وأنها تستغرب بروده الذي «يكسِف» في التعامل مع التعليقات الساخرة من حذائه، لتتطور المسألة فجأة إلى وضعه في اختيار بينها وبين الحذاء، مصممة على أن يقذف به فوراً من الدور الثامن، وإلا تركت له البيت، ليواصل خطأه التاريخي بالقول ضاحكاً إنه يفضل رميها من الدور الثامن، لأنه لم ير من الحذاء أي نكد ولا وجع دماغ.

ستعلمك التجارب السابقة، ألا تقول أبداً لمن يحكي لك حكايات كهذه، إن الزيجات والعلاقات الإنسانية لا تنتهي لأسباب تافهة أبداً مهما ادعى البعض ذلك، فتلك الأسباب التافهة تكون في حقيقة الأمر «تلكيكة» للخلاص من حياة مليئة بالمشاكل التي يهرب الطرفان من مواجهتها، بل عليك

أن تكتفي بهز رأسك وأبداء أسفك، وحين يلح صديقك في معرفة رأيك فيما حدث له، سيكون عليك أن تتحدث عن عبثية الحياة وعن قدرتها على الفرز وكشف حقائق الآخرين، ولكي تبدو جاداً وأنت تقول ذلك، إياك أن تطاوع نفسك العابثة وتسأل صديقك عن مصير الحذاء، ولماذا لم يعد يرتديه؟

هو وكمال

قرأت أول سطر وقعت عليه عيني فيما كتبه، فقلت لنفسي: «حصحص الحق وصدقت ظنوني فيه»، كان البوست الذي كتبه يقول: «أنا وكمال بنستحمى لأول مرة مع بعض، لسه يا دوبك بدأت أدعك ضهره وأحمّي راسه، لفّ بسرعة وعضعض صوابعي وجِري من البانيو»، وحكاية «الجري من البانيو» جعلتني أجري على السطور سريعاً، وأعود إلى تدوينات سابقة له لم أكن قد رأيتها، لأعرف أن صديقي الغامض أصبح يمتلك قطاً جديداً أسماه كمال، وأنني يجب أن أتخلص من عيبين: سرعة الظن، وإدمان التدخل في خصوصيات البشر.

تعسيلة

بالأمس غلبني النوم وأنا أنتظر الأتوبيس، فلم أدرِ إذا كان قد فاتني أتوبيس واحد أم أكثر، لأن اللافتة المثبتة على المحطة كانت تؤكد أن أتوبيساً يعبر كل نصف ساعة، وأنا من شدة إرهاقي خلال الانتظار نمت ساعة أو ربما أكثر.

قمت من على الكرسي ذاهباً إلى الحمام، لأغسل وجهي، وأصنع كوباً من الشاي، وأعود لإنتظار الأتوبيس بتركيز أكبر، فقد أقسمت ألا يمر هذا اليوم، دون أن أجد إجابة للغز الذي يحيرني، منذ سكنت هذه الشقة قبل سبعة أشهر: هل تمر بهذه المحطة أتوبيسات أم لا؟ ولماذا لا أرى أحداً ينتظر على هذه المحطة أبداً؟

حنان باتشان

حين قرأت أنباء عن زيارة جديدة للنجم الهندي أميتاب باتشان إلى القاهرة، تذكرت زيارته الأولى التي وقعت قبل ٢٤ عاماً وكنت وقتها في العام الجامعي الثاني، وتذكرت زميلة دراستنا التي ظل لقب (حنان باتشان) ملتصقا بها، كلما جاء ذكرها طيلة تلك السنوات، أو كلما رأيتها أنا وزملائي الأشرار تظهر على هذه الشاشة أو تلك.

كانت قد حملت اللقب، بعد أن ظهرت في برنامج تلفزيوني وهي تقف مبتهجة في مطار القاهرة مع عدد من الفتيات، في استقبال أميتاب باتشان خلال زيارته الأولى، لتصاب بعضهن بحالات إغماء، فور رؤيتهن له خارجاً من قاعة كبار الزوار، ومع أنها نفت لنا مراراً كونها من الفتيات المُغمى عليهن، فكل ما هنالك أن احداهن سقطت عليها بعد الإغماء فأسقطتها معها على الأرض، إلا أن زميلة شاركت في الإستقبال، كذّبت ذلك بحماس غريب، وأقسمت أن زميلتنا التي كانت تحرص على أن تبدو دائماً في منتهى الجدية والوقار، صرخت بهستيريا فور رؤيتها لأميتاب، وحاولت اختراق حاجز حراسته، قبل أن تسقط مغمى عليها.

بعدها بيوم كتب الكاتب مصطفى أمين في مقاله اليومي الشهير، غاضباً من الفتيات الجامعيات اللواتي أغمى عليهن

في استقبال أميتاب فأسأن بذلك إلى سمعة فتيات مصر، فتطوعت زميلات لتصوير المقال وتوزيعه، لتقرر زميلتنا أن تغيب عن الكلية شهراً، لعل غيابها يمتص اللغط الذي زاط فيه الكل، وطاب لهم الزياط، وبعد أن مضى الشهر الذي غابته «حنان باتشان»، ومضت بعده سنوات تابعناها تتنقل خلالها بين المواقع الإعلامية، وتشارك في نشاطات سياسية واجتماعية مختلفة، بل وقرضت بعض الشعر لبعض الوقت، إلا أن ذلك كله، لم يختفِ تماماً أثر البهجة غير المفهومة الذي يشيع في نفوسنا، حين نذكر اسمها مصحوباً بذلك اللقب القديم، لكنه خف كثيراً عن زمان، بعد أن أصبح لكل منا تفاهاته الموجبة للسخرية .

ماكياج

أقول لها: «يا ست الكل كان لي صورة بصحبتكِ وأنا طفل، لم أرها منذ سنوات، لكنني أذكرها جيداً، كنت في الثالثة من عمري ربما، كنت أجلس على حجرك، وأنت تمسكين برأسي ليثبت في اتجاه الكاميرا، وبالأمارة كان وجهك به ماكياج أكثر من اللازم حبتين، وكان وراءنا خلفية بشعة فيها بحر أو ربما نهر، أين اختفت هذه الصورة؟». كانت تغير الموضوع كل مرة، أو تعدني بأن تبحث عن الصورة، ثم لا تفعل حتى أنسى الأمر، وحين طلبت مني مجلة صورة لي وأنا طفل بصحبة أمي، لنشرها في عدد خاص عن عيد الأم، قررت أن أبحث بنفسي عن الصورة في الدولاب الذي تحتفظ فيه بكراكيب طفولتنا، فاجأني ارتباكها حين رأت الصورة، خاصة حين عرفت لماذا أطلبها، ذهبت إلى الدرج وأخرجت صورة أخرى لها معي ومع إخوتي، وقالت: «أعطهم هذه، شكلي فيها أحسن»، قلت لها: «شكلك في الصورتين أم، وكل أم شكلها حلو بالضرورة، سأعطيهم هذه لأنها الوحيدة التي تجمعني بك بعيدا عن الزحام»، وبكاءها المفاجئ استدعى مني تحقيقا مطولا حول سر كراهيتها للصورة، لأعرف في نهاية المطاف أن مبالغتها في الماكياج وهي تلتقط تلك الصورة، لم يكن وراءه ذوقا سيئا، بل رغبة في إخفاء أثر صفعة غاضبة،

فشل الماكياج في إزالته من داخلها برغم مرور ثلاثين سنة.

رسالة غير تقليدية

يومها ضاع مستقبل زميلنا في «أولى ثانوي»، لأنه استجاب لرغبة مشرف الصحافة المدرسية، الذي طلب منّا قبل عيد الأم: «اكتب رسالة غير تقليدية لست الحبايب تهنئها فيها بعيدها»، وزميلنا ذو اللسان السليط والخيال الجامح، أخذ المعنى حرفياً، وكتب رسالة قال فيها «أمي الحبيبة، كل سنة وإنتي طيبة، يارب تكوني استمتعتي في الليلة اللي كانت سبب إني آجي للدنيا، وما تكونيش أديتيها تقضية واجب، ويا رب يكون أداء بابا ليلتها مشرف ومش أناني»، وحتى اليوم لا أنسى كيف ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة حين أبلغوه قرار الفصل من المدرسة، وهو يقول لنا بسلام غريب مع النفس: «وهو عيب يعني إن الواحد يهتم بسعادة الناس اللي بيحبهم؟».

.. ولا تعُضّ رغيفي

أعطيته كل ما معي من فكّة، بعد أن انتشيت بصوته الجميل، وانبهرت بقدرته على الإنفصال عن ضجيج المترو، ليعطي أحسن ما عنده، حين نظر إلى ما وضعته في حقيبة الجيتار، أعاد المقطع الذي كان يغنيه تقديراً لي، فقررت تفويت المترو الذي وصل إلى الرصيف، لآخذ الذي يليه، سعياً للإستمتاع بصوته أكثر، ولكي لا أقلل عدد المتحلقين حوله، اقتربت من جمعنا سيدة عجوز عمياء، تستند على ذراع من لعلّها ابنتها، وأخذت تستمع إليه بإعجاب، قبل أن تقرر فجأة مشاركته في أداء الأغنية بصوتها الذي أعجب الجميع به، تحمست لمزيد من المتعة، لكنه فاجأنا بتغيير الأغنية، وعزف لحناً آخر، فقط ليمنع السيدة العجوز من مشاركته الغناء، مع أنها لم تبدُ كمنافس محتمل على الرزق أو حتى الإعجاب.

كان تصرفه الفظ سبباً لأقرر اللحاق بالمترو التالي فور وصوله، معتبراً أن تصرفه يشير إلى نمط سلوك هو الذي أفضى حتماً بموهبته إلى المترو، لكنني حين وقع نظري على النقود القليلة التي تناثرت في حقيبة الجيتار برغم كثرة المستمعين، لمث نفسي على تسرعها في الحكم، وذكّرتها بأن الجوع كافر.

سوء تفاهم

كان يقود سيارته في أحد شوارع مصر الجديدة، عندما لمح رئيسه السابق يسير في الشارع وهو يجر قدميه بتثاقل، وقد فارقته كل ملامح الأبهة التي لازمته خلال عمله كرئيس لتحرير أكبر الصحف الحكومية قبل الثورة، لم يكن صديقي يحب رئيسه أبداً، فقد كان نموذجاً للفساد والضعف المهني، لكنه مع ذلك شعر بالشفقة عليه، بعد أن تمت إحالته إلى القضاء وبهدلته في الصحف والبرامج وصفحات الإنترنت خصوصاً بعد أن انتشر فيديو يظهر تعرضه للضرب خلال مشاركته في انتخابات نقابة الصحفيين.

حين رأى صديقي رئيسه هائماً على وجهه، قرر أن يقترب منه بسيارته ليعرض توصيله إلى حيث يريد، اقترب منه ببطء وهو يفتح شباك العربية، ثم نادي على اسمه بصوت عالٍ، وقبل أن يلقي عليه التحية، فوجئ صديقي بالرجل وهو ينظر إليه في ذعر، ثم يطلق ساقيه هارباً وهو يتلفت خلفه في رعب، ليصطدم بصندوق القمامة ثم ينهض مسرعاً ويواصل الجري.

خبزُ أمّي

كشأن كل الأمهات الجامعيات بنات المدن، لم تكن أمي تجيد صنع الخبز أبداً، قلت لها ساخراً، وأنا أودعها لأسافر إلى جامعتي، أنني غاضب منها لأنها حرمتني من أن أردد مع محمود درويش: «أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي»، فهي لا تحب القهوة ولا تجيد صنع الخبز. في الزيارة التالية لي حاولت أن أعرف سر الضمادة التي تلف يدها اليمنى، لكنها كانت تغير الموضوع كلما سألتها، وعندما دخلت لتنام «ساعتين الضهر بتوعها» أخذتني أختي إلى سطح المنزل، وأرتني فُرناً بدائي الصنع ظهر فجأة في ركن السطح ثم قالت لي بما معناه: «يد أمك الملفوفة بالضمادة تُخفي حَرقاً تعرضت له لأنها حاولت أن تتعلم كيف تجعلك تَحِنُّ إلى خُبز أمك يا روح أمك».

حالة نادرة

كان يظن أن ذلك الجسم الغريب الذي ظهر بجوار ركبته مجرد «كيس دهني»، لكن الطبيب صارحه أنه ليس إلا احدى خصيتيه، وأنها منذ وقعت من موطنها الأصلي، باتت ترفض الرجوع إليه بأي شكل، وبعد تفاوض طويل معها اقتنع هو والطبيب بمنطقها عندما قالت لهما: «أصل يعني أنا لا عارفة أستحمل ولا عارفة أتفقع، ودي مش عيشة بصراحة».

مظاهر خدّاعة!

لم يضايقه سعر الحقنة الغالي، ولا «فيزيتة» جلسة العلاج الطبيعي التي ارتفع سعرها دون مبرر، بقدر ما ضايقته وأهانته تلك العبارة التي قالها الطبيب بعد أن انتهى من فحصه، كان الطبيب قد طلب منه ترك العمل ثلاثة أشهر ليساعد أعصاب ذراعه الملتهبة على التعافي، رد بعصبية ربما ظن أنها ستدفع الطبيب لتغيير قراره: «ما أقدرش أسيب شغلي، أموت من الجوع». حرقة الرد جعلت الطبيب يستطلع مظهره المهندم قبل أن يقول له: «بس إنت شكلك مستريح وتستحمل تسيب الشغل شوية»، ليندفع صارخاً في الطبيب: «يعني مستكترين علينا القميص النضيف اللي بنلبسه.. لازم الفقير ينزل من بيته مقيّح يعني عشان تنبسطوا». كان قد حكى لي الحكاية بذات الحُرقة كأنها حدثت للتو، ثم قال بعد زفرة عميقة: «أنا عارف إن الدكتور ما يقصدش بس برضه الكلمة ضايقتني».

يفتأ يذكرها!

كان على الدوام يعشق الإستماع إلى سورة يوسف، لكنه منذ افترقا لم يعد يفعل ذلك، لم يفكر في أن يبحث في كتب التفاسير عن معنى كلمة «حرضاً»، ولم يكن يحتاج إلى ذلك لأنه كلما وصل المقرئ إلى آية: «قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين»، يتذكر كل محاولاته الفاشلة لنسيانها ويجتاحه حنين موجع إليها، فينخرط في بكاء مرير، قال له كل محبيه إنه لو داوم عليه، سيكون حَرَضاً، أو سيكون من الهالكين.

منافذ للحزن

قبل أن ننعطف باتجاه المصعد، كنا قد سمعنا صوت نشيج يتردد من هناك، حين وصلنا إلى المصعد، كانت السيدة الخمسينية تقف إلى جواره، وقد أدارت ظهرها لنا، كانت تحمل في يدها أكياس بقالة، وتبكي بحرقة شديدة لم يخفف منها وصولنا إلى المكان، مال زوجي عليّ، وسألني عما يجب أن نفعله للمساعدة، قلت هامسة: «لعلها تلقت خبرا حزينا، ومن الأفضل أن نتركها لتختلي بنفسها».

حين وصل المصعد، فوجئنا بها تكف عن البكاء، ثم تلحق بنا إلى داخله وهي تمسح دموعها بالمنديل، ابتسمت لنا وهي تحاول استجماع نفسها، قبل أن تخرج من حقيبتها «قطرة» وضعت منها نقطة في كل عين، ثم نظرت إلى شكلها في المرآة لتطمئن على عودته إلى وضعه الطبيعي، وبعد أن سبقتنا في الخروج من المصعد، أخذ زوجي يتحدث عن ضغوط الحياة التي أفقدت الناس عقولها، فيما كنت أحاول جاهدة أن أتذكر اسم القطرة التي وضعتها في عينيها لتخفي آثار البكاء، فمن يدري متى سأحتاجها.

توقيت

صحوت ورغبة لطيفة الإلحاح تنتابني، أن أرسل لها على «الإنبوكس» أغنية (حبيبي يسعد أوقاته على الجمال سلطان) دون أي تعليق، فبالأغنية كل ما أريد قوله لها بعد انقطاع طويل عن المراسلة، وقبل أن أفعل، صادفتها تشكو في بوست طويل على «التايم لاين» من نصب الصنايعية، وبهدلة «العِزال» من شقة لأخرى، وغُلبها في تربية ابنها، ونتانة أبيه الذي يرفض دفع النفقة، ومرار الجري وراء الرزق، وإحاطة الأوغاد بها من كل جانب، فقررت أن أؤجل إرسال الأغنية، وأكتفي بالدعاء.

المختصر المفيد

تجمدت في مكانها فجأة، انتحت جانباً لكيلا تعيق تدفق المسيرة، أخذت تتابع بنظرها أختها التي لم تنتبه لتوقفها وهي تواصل التقدم مع السائرين نحو (التحرير)، تطلعت في الوجوه المارة حولها، عاودتها الأفكار المؤلمة من جديد: كم من هؤلاء كان ضد زوجها ورفاقه في أيام الثورة الأولى؟ من منهم خاض في شرفه ووطنيته ودينه؟ من منهم بارك قتله أو بررره أو أنكره أو حتى تجاهله؟ بل وهل من بينهم من شارك أصلا في قتله؟ هل أخطأت عندما نزلت اليوم؟ هل كان لديها اختيار آخر؟ هل كانت ستتحمل البقاء في البيت وسط أحزانها ومخاوفها؟ تذكرت أنها قررت النزول فقط لأن زوجها زارها بالأمس في المنام مرتديا الملابس التي استشهد بها ولم يقل لها سوى عبارة وحيدة «لعن الله من أوصلنا إلى ما نحن فيه». غالبت أفكارها وواصلت المسير نحو التحرير.

مصائر

من فرط حبه لجابرييل جارسيا ماركيز، اشترى خلال سفرية للخارج، لوحة لغلاف الطبعة الإنجليزية الأولى من رواية (مئة عام من العزلة) وعلّقها في غرفة نومه فوق سريره، برغم اعتراض زوجته التي قالت له أن اللوحة «تفصلها» خلال الجماع، قائلة له أن لوحة «الطفل الباكي» أو حتى لوحة لأي طبق فاكهة ستكون أفضل من تلك اللوحة الكئيبة. اعتبر المسألة تلكيكة تداري بها مشاكلها النابعة عن موروثات لا علاقة لها بماركيز، وبالأمس عندما التقيته بعد طول غياب، جاءت سيرة اللوحة «ضمن كلام كثير»، ففاجأني أن زوجته أصرت على أخذها مع باقي العفش بعد الطلاق، وبعد برهة صمت حاولت فيها كتم ضحكي، قال بمرارة: «مع إنها ما كانتش مكتوبة في القايمة».

ضاع في الترجمة

كانت الفتاة اللطيفة قد أخرجت كتيب (السودوكو) من حقيبتها بعد لحظات من دخولها إلى عربة المترو، فتّشت عن قلم فلم تجد، وحين ضبطتني أنظر إليها متابعا، ابتسمت لي ونظرت إلى الحقيبة التي أحملها، ثم إلى الكتاب الذي أقرؤه، فافترضت وجود قلم معي، وسألتني بابتسامة احتشدت لها «هل يمكن أن أستعير منك قلماً لأسلي وقتي فأنا لا أحب النوم في المترو»، لم يكن معي سوى قلم أهدته زوجتي لي، أخرجته من الحقيبة، وقلت بإنجليزيتي المتعثرة: «طبعاً يمكنك أخذ هذا القلم»، وهي فهمت كلامي بمعناه الحرفي، فقالت بسعادة بالغة: «هذا لطف منك لم يعطني أحد هدية منذ زمن بعيد»، وقبلة المجاملة التي أرسلتها لي في الهواء، جعلتني أمتنع عن توضيح معنى العبارة كما قصدته، وهي فتحت الكتاب وغرقت في السودوكو، بينما كنت أفكر هل سيكون من الحكمة أن أعترف لزوجتي بأنني أهديت قلمها الذي أحبه، لامرأة لا أعرف عنها سوى أنها تأخذ الكلام بمعناه الحرفي.

زاوية رؤية

وقفت أطل عليهما من خلف فاترينة المكتبة، وقد تقارب رأساهما الأصلعان الأشيبان، وأخذا ينظران إلى شيي ما، كان يجلب لهما الهم العميق كما بدا لي، نظرت إلى المكتبة الخالية من الزبائن، فقلت: لعلهما ينظران إلى حسابات المكتبة المتعثرة، ويفكران في إيجاد حل يمنعها من الإغلاق، كما حدث لمكتبة جارة على بعد ناصيتين، لم تعد بضاعتها من الكتب القديمة تستهوي القراء الجدد، دخلت لأبدي تضامني بشراء كتاب، فوجدتهما منهمكين في حل الكلمات المتقاطعة، هزا رأسيهما بتحية فاترة لي حين دخلت، وعاودا النظر إلى الصحيفة التي استلبتهما تماماً، فلم أجد ما يستدعي إلغاء قراري بالتضامن، واشتريت ثلاثة كتب.

كأنها هي

لم أعرف ما ينبغي عليّ فعله، هل أكتفي بمحاولتي كتم الضحك، أم أتحرك لإبعاد الشاب عنها؟ كان الموقف مربكاً في العيادة التي لم تكن وقتها مزدحمة بالرواد، كانت السيدة العجوز قد أخذت تصرخ فينا أن نبعد ذلك الشاب عنها بسرعة، والشاب الذي بدا لنا مظهره محترماً، كان منهاراً من شدة البكاء وهو يواصل احتضانها، وكلما حاول تقبيل يديها أبعدتهما عنه، لتحاول بعدها إبعاده عن قدميها الذين انهال عليهما تقبيلاً، لكنها لم تركله، ليس تأدباً، بل لأنها لم تكن تقوى على تحريك قدميها، وما جعلنا نتباطأ في التحرك، لم يكن إلا صوته المختنق بالنشيج: «والنبي يا حاجّة سيبيني أبوس إيديكي.. إنتي أصلك شبه المرحومة أمي الخالق الناطق.. حضنها وحشني والله يا ست الكل».

ترجيع

زمان، كنت تحب عبد الوهاب حين يغني «تعالي نفني نفسينا غراما»، ومع ذلك كنت تنهال عليه تريقة مع أصدقائك حين يقول: «أرتِّل فيكي أشعاري وأصغي.. إلى ترجيعكِ العذب الحنون»، وتسأل كيف لم يدرك عبد الوهاب بذكائه الفني الحاد، ضرورة تغيير كلمة «ترجيع» برغم فصاحتها، لأن معناها الشعبي سيجعل من المستحيل الجمع بين الترجيع والحب في سياق واحد، بالطبع لم يكن يخطر على بالك وقتها، أنك ستحب وتتزوج وتنجب، وستشهد من صروف الحياة ومصاعب تربية الأبناء وتكاليف «فتح البيوت»، ما سيجعلك تجلس في صالة منزلك، تستمع إلى صوت ترجيعها ينبعث من الحمام، وأنت تقول لنفسك بصوت تملؤه الرهبة وقلة الحيلة: «أنا في عرضك يا رب بلاش تطلع حامل اليومين دول بالذات».

حلول

أقول لها مشاكساً: «بس القايبر ده يا أمي بتاع شركة اسرائيلية وبيتجسسوا على المكالمات اللي فيه»، ثم أنتظر أن ترمي الموبايل على طول ذراعها، كما يليق بسيدة لم تترك مظاهرة ضد اسرائيل إلا وشاركت فيها، من أيام دراستها الجامعية وحتى المظاهرات التي شاركت فيها مع أبنائها في مدارسهم وجامعاتهم، لكن تفرق أبنائها في أصقاع الأرض، كان قد أصابها بمرونة سياسية طارئة، فقالت بهدوء شديد وكأنها لم تسمع مني ما يسوءها: «كويس إنك نبهتني عشان كل ما أكلم حد فيكو أبقى ألعن سنسفيل اسرائيل في أول المكالمة وفي آخرها».

درس

كلّفه الأمر أياماً في المستشفى، وأسابيع في البيت، وكمّاً كبيراً من الدولارات، لكي يتعلم درساً بسيطاً: حين تتساقط الثلوج، لا تنظر أبداً إلى أعلى، لأن مشكلتك الحقيقية ستكون تحت قدميك.

رأسان في الحلال

كان جمالها لعنتها، وكان ضعفي أمام الجمال لعنتي، وكان توافق لعنتينا، لعنة أبنائنا.

هيييه دنيا!

أعطيت وصيتي للمحامي، قرأها بإمعان ثم وقف ليضعها في الخزنة، متنهداً ومتصنعاً التأثر العميق وهو يقول لي: «ماكانش ليه لازمة إنك تكتبها بدري والله.. إنما عندك حق ما حدش ضامن عمره»، كان حريصاً على حجب الخزنة بجسده، لكي لا أتبين أرقامها، في نفس الوقت الذي كان يقول فيه: «الدنيا دي ولا تسوى.. ما حدش واخد منها حاجة»، وحين سمع صوت ضحكتي المُطعّمة بشخرة خفيفة، أغلق الخزنة واستدار نحوي وهو يضيف ضاحكاً: «غير أتعابه».

قال الشاعر

محمود درويش دون غيره، كان السبب الذي جعل حبنا ينمو ويترعرع ويزدهر حتى الآن. منذ عرفتها قبل أشهر، ظللنا نتبادل كل يوم قصائده المتاحة على اليوتيوب بكافة أنواعها: القصائد التي صورت له في الأمسيات الشعرية والبرامج التلفزيونية، والقصائد التي ألقاها بصوته فقط، ثم أخرجها أحدهم بعد وضع صورته وموسيقى للثلاثي جبران أو لمارسيل خليفة، والقصائد التي تُكتب كلماتها فقط على الشاشة لأنها غير متاحة بصوته، كنت أختار لها من بين كل هذا كل يوم شعراً ما لدرويش يعبر عن مشاعري نحوها، فتبادلني بشعر لدرويش يؤكد أنها تبادلني نفس المشاعر، وربما كانت علاقتنا مستمرة حتى الآن لأنني لم أقل لها، ولا أنوي أن أقول لها أبداً، أن أكثر ما يعجبني من شعر درويش قوله: «لا أريد من الحب غير البداية».

انسحاق عاطفي

تعرفين؟ اليوم وأنا صائم ووسط جوعي وعطشي وعرقي وتعبي وزهقي ونظري الدائم إلى الساعة، تذكرتكِ وتذكرت كل أيامنا الجميلة، تذكرتها كأنها كانت بالأمس القريب ولم يمر عليها كل هذا الزمن، وأدركت أني لم أنسك أبداً كما كنت أقول لنفسي وأنني لا زلت أفتقدك كلحظة فراقنا بالضبط، تعرفين؟ اليوم فقط شعرت بذلك الحنين الغامر الذي يكتبون عنه في الروايات، فنستغرب مبالغتهم في وصفه، والحنين جرفني فبكيت، ووسط دموعي المنهمرة دعوت لك من قلبي: «يارب تِشرَقي وتموتي وإنتي بتفطري يا بنت الكلب»، ليس لأنني أكرهكِ، وليس لأن هجركِ لي لا زال يوجعني، وليس لأني أكره دوام ضعفي نحوكِ، ولكن لكي أجرب هل سيزيد الموت من افتقادي لك، أم أن وجع غيابك عن الدنيا كلها لن يفرق كثيرا عن وجع غيابك عن دنياي.

ساعة استجابة

قررت أمه تكثيف دعائها بأن يصلح الله حاله، فقط ليكف الجيران عن الشكوى الدائمة من أفعاله الهوجاء التي تقلب دائماً بـ «نكد بين العيال»، كانت تدعو له ككل الأمهات بين حين وآخر، لكنها للأمانة لم تكن تدعو بشكل منهجي منظم، ولذلك قررت تغيير أسلوبها بأن تدعو له تحديداً في يوم الجمعة الذي كانت قد سمعت في (إذاعة القرآن الكريم) أن به ساعة استجابة، كانت تختار كل جمعة ساعة معينة تدعو له طيلتها بحرقة شديدة، ثم في الجمعة التالية تدعو له طوال ساعة مختلفة، وعندما عاد لها في الجمعة الخامسة والعشرين ربما، مضروباً ممزق الملابس منكوش الشعر نازف الأنف كعادته، كانت لا تزال مستقرة على سجادة الصلاة، «حَدَفته» بفردة الشبشب القريبة منها وهي تقول له «إنت مش نافع مع أمك دعا الجمعة ده خالص، تبقى تستنى رمضان لما أشوف آخرتها معاك».

لو اطّلعتم على الغيب

غرابة أطوارها معه دفعته للشك فيها مؤخراً، ولأنه لم يحسب لمفاجآت الأقدار حساباً، فقد ترك شكوكه تسوقه، واشترى كاميرا مراقبة حديثة من صديق يتردد على الصين، ويستورد منها سلعا تجتذب المصابين بشتى أنواع الهوس. الآن، عندما يجلس في شقته بعد أن خلت منها، لا ينكر شعوره بالرضا لأنه اكتشف أنها لم تكن تخونه، لكن الأسى يستبد به، كلما تذكر كيف أدار تسجيل الكاميرا، والفضول يكاد يقتله، ليراها تنتزع صورة زفافهما المعلقة على الحائط، وتنهال عليها ضرباً بشبشب البيت، ثم تبصق عليها بحرقة. لم يكن يتوقع أنها تخبئ له كل هذه الكراهية، وبدأ يتخيل بعدائية سيناريوهات مواجهتهما، لكنه ارتبك وشعر بالحزن، عندما رآها في التسجيل تمسح البصاق من على الصورة، وتعيدها إلى مكانها، ثم تجلس منخرطة في بكاء طويل، قبل أن تنهض لتحضير الغداء.

معاني

كانت تتحدث عن أيامهما العابثة، بشجن ذكرني بشجن أنغام حين غنّت قديماً: «أعمل إيه في الوحدة وانت مش هنا»، ثم أخذت نفساً عميقاً وقالت لي وهي تمد أصابعها في الهواء أن كل شيئ فيه كان موهوباً، حتى أصابعه، وأنا فكرت عندها، كم كان البني آدم منا ساذج المشاعر فقير المعرفة، حين كان يفكر بشكل عاطفي بحت، كلما سمع إمرأة تغني لحبيب غائب: «أعمل إيه في الوحدة وانت مش هنا».

ولديها مزيد

عندما وجدها ميالة إليه في صخب الملهى الليلي، ظن أنه امتلك كل شيئ، كان فيها كل ما تمناه في نساء تلك البلد الغريبة: شقراء، فارعة الطول، نهداها ممتلئان، بياضها حليبي، صوتها به بحّة غير مستهجنة تزيدها إثارة، عيناها ترسلان إشارات مثيرة للغريزة والفضول، وعندما اصطحبها إلى شقته في آخر الليل، اكتشف أن لديها المزيد، فقد كانت تمتلك فوق كل تلك المفاتن، موضعاً للذكورة.

تنمية ذاتية

كان مرعوباً طيلة الوقت من أن يداهمه الموت فجأة، فتموت معه أحلامه التي لم يحققها، حاول على الدوام أن يجعل من ذلك الرعب حافزاً له على الإنجاز ومواصلة العمل، لكنه مؤخراً اكتشف أن ذلك الرعب الذي لم يفارقه أبدا، قد أفسد عليه الإستمتاع بحياته، لذلك قرر أن يكون مستعداً للموت في أي لحظة دون أدنى قلق، بعد أن نسي كل أحلامه، كأنها لم تكن. .

يا رايحين لحلب

لعلك لا تذكرين ذلك الجنون الذي انتابنا يومها، ونحن نعيد كل شويّة تشغيل «منير» وهو يغني: «دول عايروني وقالوا أسمر اللون يا لاللي»، كنت ترقصين بعفرتة معجونة بشجن لم أكن أفهمه، وكنت أحتضنك من الخلف بشغف كنت تشككين في براءته، وتقولين ضاحكة أنني سأحتاج إلى سنين لأتخلص من أعراض متلازمة أتوبيس «٩٢٤ عباسية ـ كفر الجبل»، وتتهميني بأنني لن أفهم أبدا شجن الغنوة الذي يحكي عن عياط الياسمين وشكوى السَيْسَبان، لأنني قمحي ولست أسمر اللون بحق وحقيق.

تعرفين؟، لم تعد تلك الغنوة تثير جنوني، أصبحت لا أطيقها، ليس فقط لأن ذكر حلب بات يثير الأسى بعد كل ما جرى، وإنما لأنني منذ رأيت صورة زفافك في مجلة (ليالينا) عند ذلك الحلاق اللعين، وأنا كلما سمعتها أتخيلك ترقصين على أنغامها، بذاك الجنون المعجون بالشجن، لزوجك أسمر اللون.. بحق وحقيق.

حس أمني

كنا مهتمين بتذكير أنفسنا بأننا لم نتغير، لكننا نسينا أن الدنيا نفسها تغيرت. كنت قد ذهبت معها إلى الفندق الذي شهد أجمل أيام هوانا، جدّدنا طقوسنا القديمة كلها بإستمتاع شديد، واطمأن كل منا إلى طزاجة رغبته في العبث، حتى وإن لم تعد القدرة على العبث طازجة بذات القدر.

قبل أن نغادر الفندق لم ننس ممارسة لعبتنا المفضلة في إنتظار المصعد حتى يخلو، ليحلو لنا العبث فيه، نصعد ونهبط به مرارا وتكرارا، وكلما باغتنا وتوقف عند طابق ما، نبتعد عن بعضنا، ونرتدي قناع الجدية ونكتم الضحك، ثم نتأهب لجولة عبث جديدة حين يخلو المصعد لنا من جديد، كان ذلك سيكون ممتعاً كما كان في الماضي، لولا أننا لم نحسب حساب التطورات الأمنية التي أجبرت مسئولي الفندق على أن يضعوا في المصعد كاميرا مراقبة.

لو كان لدينا حس أمني لنجونا من الفضيحة.

حلول درامية

الثروة الطائلة التي حققها بدأت بمسلسل كان «وش السعد» عليه، حكى فيه وقائع مأخوذة من «صميم الحياة»، عن عائلة كانت سعيدة لولا أن فرقت الخلافات على الميراث أفرادها، فجعلتهم يجرجرون بعضهم في المحاكم، المسلسل أطلق أسطورته ككاتب درامي بارع «رصد أدق دخائل النفس البشرية» كما قال النقاد، وهي الأسطورة التي تواصلت بعد موته، عندما تابع الناس بشغف تفاصيل الخلافات الشرسة على الميراث بين أبنائه في ساحات المحاكم، وتلك الخلافات التي تحولت إلى معارك فضائحية كانت بدورها مصدر إلهام لكاتبٍ شاب لم يكن وقت كتابته لمسلسله الجديد ساحق النجاح، قد رُزِق بعد بأبناء تمنى من كل قلبه ألا يجرجروا بعضهم في المحاكم بعد أن يموت.

مصطلح

أخذت تحكي لي بحماس معاناتها كأم وحيدة أو كـ «سينجل ماذر» طبقاً للمصطلح الذي اختارت استخدامه، قلت لها بتأثر وأنا راغب حقاً في مشاطرتها الأحزان: «أعرف ما تحكين عنه فقد عاشت أمي تجربتك الأليمة»، سألتني بإهتمام «هوّ باباك كان متوفي ولا كان منفصل عن والدتك؟». قلت لها: «بالعكس كان عايش معانا في البيت دايما، بس أمي طول الوقت كانت سينجل ماذر".

زاويتي

لكل امرأة تحبها زاوية رؤية تسكن ذاكرتك، بعض النساء تتذكرهن دائما من الخلف، وبعضهن تتذكر وجوههن من جانبها، وبعضهن لا تتذكرهن إلا من زاوية أفقية بحيث ترى أعينهن الساحرة على إتساعها، أما هي فأول ما أراه حين أذكرها مسقط رأسي، أرى منه وجهها مرفوعاً نحوي وهي تنظر لي بكل ما في الدنيا من حب، بينما تجثو على ركبتيها لتقوم بعقد رباط حذائي الذي ينفك دائما، وأرى فيه من نفس المسقط الرأسي وجهها في مرات أخرى، وهو مرفوع نحوي ينظر لي بحب من نوع آخر، بينما هي تفعل ما لا تفهم أهميته، إلا حبيبة برغم «أُبّهتها» لا ترى في عقد رباط حذاء حبيبها أو فك زنقته، أمراً يعيبها على الإطلاق.

تلك الناصية

جلس يتناول إفطاره ويراقب الشارع من خلف زجاج الكافيه، مفتتحاً بداخله أعمال لجنة تحكيم لاختيار أجمل الأفخاذ العابرة، استوقفه اشتباك عنيف بين ثلاثة عصافير على الناصية الملاصقة للكافيه، بعد ضربات متتابعة انسحب عصفور وترك الناصية للآخرَين الذين اشتبكا من جديد، فبدت أخيرا طبيعة اشتباكهما واضحة له وللمارة، الذين تابعوا ذلك الاشتباك مبتسمين، خلال إنتظارهم تغير لون الإشارة، ومع طول الاشتباك وعنفه الذي لم يكن متناسبا مع الصورة الذهنية المفترضة لغرام العصافير، سرت في المكان حالة من البهجة العابثة جعلته ينساق وراء تفاهته ويطلق على الناصية اسماً كتبه بقلم فلوماستر على الجدار المجاور الكافيه ليلاً، بعد أن خلا الشارع من زحامه.

في زيارته التالية للمدينة ضحك من أعماقه عندما رأى الاسم الذي كتبه لا يزال موجوداً على الجدار، ثم تحولت ضحكته إلى قهقهة، عندما وجد أن متطوعاً مجهولاً قام بترجمة الاسم إلى الإنجليزية، وأحاط الاسمين بمربع، كأنه يعلن اسماً رسمياً جديداً للمكان: «ناصية العصافير الهائجة».

نظرة فاحصة

كان الإعجاب قد وُلِد بينهما من أول نظرة، تماما كما تقول القصص الخيالية، انتبهت إلى نظراته الفاحصة ليديها، تساءلت: هل قرر أن يتأكد ما إذا كانت متزوجة أو مخطوبة قبل أن يبادر بخطوة أخرى في طريق إعلان محبتها؟ هو كان بالفعل معجباً، وبالفعل كان يريد أن يتأكد قبل أن يتخذ خطوة أكبر، لكنه في الحقيقة لم يكن يبحث عن الدبلة، كان يبحث خوفاً من وجود صليب.

محاولة في نقد التسوّل

وقف في منتصف عربة المترو مُزكماً الأنوف برائحته النفاذة، ولافتاً الأنظار إلى ملابسه الرثة التي لا تناسب البرودة القارسة، قال بصوت جهير وأداء واثق لا يؤتى إلا لممثل لا يملُّ التكرار، أو لضحية لا تسأم الشكوى: «سيداتي سادتي، أبلغ من العمر ٢٨ عاما، مصاب بالإيدز، ورثت المرض عن أبي وأمي الذين توفيا به، وتركاني خلفهما أصارع الحياة لأكثر من ٢٤ عاما، لا أحد يرغب في توظيفي بسبب مرضي، ليس لدي تأمين صحي لكي أتعالج، لا أبحث عن معجزات، أبحث عن ما يكفي لوجبتين ساخنتين ومكان دافئ أنام فيه، هذا ما لدي، فماذا لديكم؟»، أخذت أتأمل أداءه وهو يكرر ما قاله، محاولاً استخراج مواطن الضعف التمثيلي، فوجئت بكثيرين يمدون أيديهم لمساعدته على غير ما توقعت، لم أدري، هل لأن قصته مألوفة في هذا المجتمع؟ أو لأنها ممكنة الحدوث؟ هل ركاب هذه العربة بالذات كرماء لدرجة تجعلهم غير مشغولين بالتأكد مما إذا كان المتسول صادقاً أم كذاباً؟ أم أنهم غير معنيين بذلك أصلاً؟ باعتبار أنه لو كان كاذباً، فلجوءه لادعاء الإصابة بالإيدز، يدل على بؤس ويأس، يستحق من أجلهما المساعدة.

مصائب قوم

لأنني لم أكن أعرفها، ولأنني لم أكن قادرا على إمتلاك جرأة تقديم نفسي لها، ولأنني لا أؤمن أصلاً بأن «الناس لبعضيها»، ولأنها إن جئت للحق لم تكن مغرية شكلياً ولا جسدياً، بشكل يدفعني لمخاطرة «موضع الحرج» إن تقدمت لمواساتها، لذلك كله قررت بإنتهازية بحتة، أو قل إن شئت بواقعية بحتة، أن أتخذ من حزنها مدعاة لتمضية وقت سخيف، لم يكن سيمضي سريعاً في العادة، وحين جاء موعدي وغادرت الكوفي شوب، تراجعت عن الذهاب إليها لكي أشكرها قبل أن أنصرف، فهي لم تكن ستتفهم امتناني لها، فالساعة التي أمضيتها على ضوء الشموع، منتظراً عودة الكهرباء أو حلول موعدي، لم تكن ستمر بتلك السرعة، لو لم أكن قد قضيتها في تخمين أسباب مختلفة مقنعة تفسر بكاءها الغزير.

خطأ في التعريف

عندما تحرصين على إخفائها بعيداً عن ناظري، وأنت تعلمين أنه سيتم اكتشافها من بعدك، وعندما تحرصين على أن تبقى طويلاً، وعندما تفعلينها أصلاً وأنت مسكونة بكل تلك الكراهية لمن تتصورين أنها تجور على حقك في إمتلاكي، فلا تسميها إذن «عَضّة حب».

آلات حادة

حين عاد إلى البيت، شكا له البواب أن المدام رمت فجأة من البلكونة، شنطة صغيرة مليئة بالسكاكين من مختلف الأنواع والأحجام، «الحاجات دي كان ممكن تعوّر حد يا باشمهندس»، صعد إلى البيت وهو يُقلِّب في دماغه كل التفسيرات المحتملة، خلال تقليبه في الشنطة التي كشفت له عن سكاكين لم يسبق أن رآها في بيته من قبل، وحين دخل إلى البيت، ورأى زوجته غارقة في البكاء، وهي تجلس أمام الكمبيوتر، نظر إلى الشاشة المليئة بالصور المتلاحقة، ووجد التفسير.

كأنك تعيش أبداً

كانت ترابيزة مطعم الأسماك المزدحم قد جمعتنا بالصدفة، كان ممتناً لأننا سمحنا له ولزوجته بمشاركتنا الترابيزة، حكى لي ولصديقي قصصاً لطيفة للغاية عن موطنه كولومبيا، وعن عشقه لزوجته الأسبانية التي استمر زواجه بها ستين عاماً، وحين سألناه بمزيج من الإعجاب والغيرة: كيف قارب كلاهما على التسعين دون أن يبدو عليهما أثر العمر العتيّ، أشار إلى الأطباق المتراصة أمامنا وقال: «كل يوم على الغداء والعشاء نأكل فقط ربع ما تأكلانه ».

لأول مرة

كانت قد أحبت غنائي لها كثيراً، فسألتني: «هل غنيت لأحد من قبلي»، لم أكن غبياً لأعترف لها أنني غنيت لكل من قبلها، وأن كل واحدة منهن سألتني نفس السؤال، فأجبت بنفس الإجابة، وأنني سأغني لمن بعدها، وسأجيب بنفس الإجابة، إذا سُئلت نفس السؤال، ليس لأني مخادع حقير، بل لأنني في كل مرة، أحرص على تجويد أدائي، كأني أغني لأول مرة.

زمن المعجزات

كعادتي كل صباح، حرصت على عدم النهوض من السرير فجأة، تطبيقاً لنصيحة شاهدتها في برنامج طبي ما، حين وضعت قدميّ على الأرض فوجئت بأن المياه تغمرهما، ضحكت مستغرباً من تحوّل حلم المشي على شاطئ البحر الذي فارقته للتو، إلى حلم «ثري دي». لم يُغيِّر ضحكي من شعور قدميّ بالمياه، فقررت تحريكهما قبل أن أنظر إلى الأرض، لأتشبث بالحلم حتى آخر لحظة، قبل أن أفتح عينيّ على اتساعهما، لكن عيناي «فنجَلَتا» حين سمعتُ صوت طرطشة، اكتشفت بعدها أن أرضية الغرفة غارقة في المياه، لا أدري أي تفكير عابث ذلك الذي جعلني أنظر إلى بنطلوني للاطمئنان، مع أن حجم المياه كان يحمل تقديراً مبالغاً فيه لقوة مسالكي البولية.

تحوّل المشهد إلى لغز غامض، حين اكتشفت بعد تفتيش متعجل، أنه لا مياه تأتي من الحمام الملاصق لغرفة النوم، ولا من المطبخ المواجه لها، ولا من أي مكان آخر ظاهر للعيان، فقادني تفكير عابث جديد إلى أنني ربما أشهد الآن حدوث معجزة، ربما كانت من علامات الساعة، حيث تنفجر الينابيع في الشقق السكنية من خشية الله، وقبل أن أقول «سبحان الله»، وأنا أنظر خاشعاً إلى (الباركيه) المستقر في مكانه،

دون أن يحركه تفجر النبع، بدا لي أنني أسمع صوت تدفق هادئ لماء، لا يرقى إلى وصفه بالخرير، فهو إلى «الخَرّ» أقرب. انحنيت أسفل السرير متتبعا مصدر الصوت، فرأيت الماء يتسرب من أسفل الحائط الملاصق لشقة الجيران، التي اتضح أنها غرقت بأكملها وأغرقت الشقتين المجاورتين لها، وحين أتذكر الآن كيف تبدّل بحثي الهادئ بعد الإكتشاف مباشرة، إلى ذعر هستيري من أجل انقاذ ما يمكن إنقاذه، أفكر أن الإنسان منّا أصبح هذه الأيام يحتاج إلى معجزة، لكي يتصرف بهدوء حين تحل عليه المصائب.

دودة الكتب حرامية

بعد فوات الأوان

لم يكن ليُصدَّق أن «العباية» التي كانت مثاراً دائماً للتندر على إدمان أمه لإرتدائها، وكأنها لا تمتلك غيرها، لمجرد أنها اشترتها في الحج، وتتبارك بها دون غيرها، ستتحول بعد ذلك إلى مصدرٍ لحُزنٍ لا ينقطع، حُزنٌ أربكه وجعله لا يدري كيف يتصرف فيها، فلا هو راغب في الاحتفاظ بها، ولا هو قادر على التخلص منها، حُزنٌ بدأ انفجاره في ذلك اليوم الذي عادت فيه «العباية» من «الدراي كلين»، لتجد أن صاحبتها قد ماتت.

فوجة الكتب حرامية

إلى جوار الحبيب

أدركت أنني احتللت مكاناً مميزاً في قائمة المحبين البُلهاء، وأنني حطمت رقمي القياسي السابق في الهطل العاطفي، حين ضبطت نفسي أكاد أطير من الفرحة، بعد أن رأيت اسمها يجاور اسمي، في قائمة الذين ضغطوا «لايك» على هراء كتبه صديق مشترك، وإن كنت لا ترى ذلك بلاهة عاطفية، فلعلي لم أخبرك بعد، أنني قمت بالتقاط «سكرين شوت» لاسمينا المتجاورين أسفل البوست، لأحتفظ بتلك اللحظة إلى الأبد، لعلها تعوض خيبة أملي في أن اسمينا لم يتجاورا كما كنت أتمنى في دعوة زفاف.

دوحة الكتب حراميه

حلم على القَدّ

كانت حريصة على أن تمر ليلتها بسلام، لم تكن مستعدة لمزيد من البكاء الذي أجهدها في الليالي الماضية، أخذت كل احتياطاتها جيداً، بعد أن نام ابنها في موعده المثالي اختارت وجبة مشبعة لا تدفع إلى الشعور بالذنب، دفنت نفسها في ركام أوراق أحضرتها خصيصاً من المكتب لتهرب إليها، اختارت قائمة أغاني منزوعة الشجن، أجبرت نفسها على عدم تشغيل التلفزيون، قطعت علاقة كمبيوترها بالإنترنت، لكن كل حصونها الدفاعية انهارت في نهاية مكالمة طويلة مع صديقتها المقربة، التي أصرت على أن تطمئن عليها، سألتها صديقتها: «أنا هاقوم أصلي ركعتين.. تحبي أدعي لك بإيه غير إن ربنا يكفيكي شر الرجالة»، ردت ضاحكة: «ادعيلي بس الياسمينة تطرح عشان اتأخرت كتير.. والله لو طَرَحت هافرح ساعتها بجد»، وما جعلها تبكي بحرقة بعد نهاية المكالمة، أنها أدركت أن أقرب فرحة ممكنة التحقق في حياتها، لا يتوقع أن تأتي إلا من تلك الياسمينة.

شرف المحاولة

كنا نقف عند عم سيد الطعمجي والجهامة تسود وجوهنا بسبب قرفنا من الزحام وبطء الإنجاز، عندما دخل علينا ذلك الرجل الذي بدا متهلل الأسارير بصورة مستفزة، لينهال على عم سيد بتصبيحات مرحة ومجاملات ضاحكة، بدا أنه اجتهد في صياغتها لتكون مبهجة لعم سيد، قبل أن ينهي وصلته قائلاً: «والنبي ياعم سيد بنص جنيه طعمية بس مشيني الأول عشان مستعجل الله يبارك لك»، كل ما قاله لم يعن شيئاً لعم سيد الذي شخط فيه طالباً منه أن يلتزم بدوره، ثم علّق على وصلة مجاملاته بقوله: «وبعدين أنا مش فاهم إنت رايق على إيه أساساً في الأيام اللي زي الخرا دي»، ليقف الرجل مكبوساً ومتجهماً مثلنا، وأنا قررت أن أتضامن معه بالتنازل له عن دوري، فقد كان هذا ما أملكه، للتضامن مع من لا زال يعتقد بأن هناك جدوى للبهجة.

والنهي عن المنكر

عاد الخوف ثانية لكي يتملكها، هاهي من جديد تغلق شباك سيارتها المجاور لها بإحكام، وتتحفز لكل مقترب من سيارتها منتظرة أن يخرق أحد خصوصياتها، فيبادر إلى أمرها بالمعروف، فتبادر هي إلى عمل المنكر معه على حد تعبير ساخر لصديقتها «الأنتيم»، وبعد أسبوع كامل مليئ بالتجارب اكتشفت أن حظها كان مختلفاً عن باقي صديقاتها، فكل من اقتربوا من مساحتها الشخصية، لم يكونوا ناهين عن المنكر، بل كانوا محاولين لارتكابه.

هوت الكتب حرامية

في ختام الحلقة

كانت تبدو للجميع طيلة اللقاء مبتهجة وراضية بحياتها التي أنجزت فيها الكثير، وحين سألها المذيع سؤاله الروتيني الأخير: «في ختام حلقتنا عايز أسأل حضرتك: نِفسك في إيه دلوقتي؟»، لم تقل كلاماً تقليدياً عن أملها في أن يعم السلام أرجاء البلاد أو أن يحفظ الله الوطن، وما إلى ذلك من كلام يتمناه البعض وهم يعلمون أنه لن يتحقق. إجابتها كانت مفاجئة، نظرت إلى الكاميرا وقالت بشفتين مرتعشتين «نفسي في حضن ماما، بس كده»، ثم انخرطت في بكاء مرير، ولأنها تصورت أن البعض سيجد بكاءها مبالغاً فيه، بالنسبة لسيدة على مشارف الستين، أوقفت بكاءها للحظات، وحاولت تفسيره بترديد مثل شعبي لم تنسه منذ سمعته من دادتها وهي طفلة: « اللي من غير أُمّ حالته تغُمّ».

طبيعة مهنة

كما توقع، لم يفهمه الطبيب، حين طلب منه أن يدله على دواء، يجعله ينسى بالتحديد كل الأشياء التي كتب عنها من قبل، لكي يستطيع تكرار الكتابة عنها باندهاش وانفعال ودون أن يشعر بالألم، لأن طبيعة مهنته تجعله مضطراً إلى التكرار اللا نهائي.

في سن الضياع

كانت المباراة حامية الوطيس، بشكل لا يتناسب مع صغر الملعب الذي تجري عليه، وقلة عدد اللاعبين، أخذت أتابعها مستمتعاً، دون أن تغيب عيني عن متابعة لعب بناتي بالمراجيح والزحاليق، لكن مجراها تغير فجأة حين قام أحد العيال بترقيص منافسه ترقيصة مهينة، وحين شَرَخ بالكرة بصق عليه المنافس من فرط غيظه، بصقة عائلية الحجم استقرت في قفاه، ترك المبصوق عليه الكرة، واستدار ليصفع منافسه بحرقة شديدة، والصفعة استفزت أطول اللاعبين الذي لم يكن قد رأى البصقة التي سبقتها، فصرخ في عموم اللاعبين: «اشهدوا يا رجالة.. مصطفى حنكر ضرب أحمد ناصر بالقلم على وشه.. هي دي بقى الصحوبية؟». امتقع وجه المصفوع، ولعله تمنى أن لم يكن الأطول قد ناصره ليفضحه، لكن المبصوق عليه قرر شرح موقفه، فصرخ مشيراً إلى الباصق المصفوع: «البيه بسلامته تفّ عليّ من ظهري، والقلم ده عشان يبقى يتف عليا في وشي بعد كده»، وحين نظر الجميع إلى الباصق المصفوع، لم يجدوا لديه سوى نظرات حائرة، قرر أن يتغلب عليها، بتوجيه بصقة جديدة، هذه المرة إلى وجه صافعه، لتندلع موجة عارمة من الضحك، أوقفتها صفعة جديدة أشد قسوة، ترتب عليها انحيازات

ضرورية، أشعلت حرب الجميع ضد الجميع.

إنعاش ذاكرة

هفّني الشوق إليها، فقررت أن أذهب إلى صفحتها على الفيس بوك، لألتمس بعض أخبارها، ولتنعش صورها ذاكرتي التي تحتفظ لها بالكثير من مشتركات البهجة، ومن يدري، فقد أقرر إعادة صداقتنا الإفتراضية من جديد، بعد أن قضى بُعد المسافات على صداقتنا الفيزيقية، لكن قراءة آخر تنهيقاتها في الشأن العام، لم يذكرني بأيامي معها، بقدر ما ذكرني بأسباب انقطاع صداقتنا.

حوار داخلي

لا أدري إذا كان يصح أن أقول أنني «أشَحتُ بركبتي عنها»، لكن ذلك ما حدث، فور أن التصقت مؤخرتها بركبتي، لأبعدها عنها بقدر ما تقتضيه المساحة، كان ذلك الالتصاق مفهوماً كتصرف عرضيّ في البداية، فقد كان الكوفي شوب الذي كنا نجلس فيه شديد الضيق، وطاولاته التي اكتظت بالقادمين لشرب الشيشة كانت متلاصقة إلى حد عبثي، جعل كل الزبائن يبدون كرواد حفلة واحدة، ولأنه لم يكن هناك مجال لأن تتصور مسام مؤخرتها المتصلة بمراكز الإحساس في مخها، أن ركبتي اليسرى كانت جزءاً من الكرسي الخشبي، فقد بدا اندلاقها على ركبتي مجدداً أبعد من الإلتصاق العرضي، وبات محركاً لمشاعر ليست بريئة، وسبباً في إثارة أسئلة كثيرة، عما إذا كان ذلك تحرشاً بي من طرف مؤخرتها، وهل يُعد قبول ركبتي بالأمر الواقع تحرشاً من طرف ركبتي، وهل يجب على ركبتي أن تتخذ خطوة إضافية بدورها، لكي لا يُفهم جمودها خطئاً، لكن انشغالي بذلك الحوار الداخلي توقف فجأة بعد تبدّل ليونة المؤخرة الملتصقة بركبتي، إلى صلابة ملحوظة، ولم أكن محتاجا بالطبع لأن أدير وجهي يساراً، لأدرك أن المؤخرة الجديدة تخص صديقها الذي ساءه الإلتصاق حين أدركه، وأن على ركبتي أن تبادر بالإبتعاد عن

المجال الحيوي لتلك المؤخرة فوراً، منعاً للفضائح.

سِكّة حديد

كنا نجلس في بلكونة شقته التي باتت تثير حسدي منذ أن دخلتها لأول مرة، كان قد مضى على جيرتنا ما يقارب العام، ولعله يومها شعر أن تلك فترة تسمح بتحوّل جيرتنا، إلى صداقة تتطلب مشاركة بعض الأسرار. للحظات ساد المكان ذلك الصمت الذي يعقب مرور القطار، بصخبه الذي يتكرر كل خمسة دقائق أو ما دونها، أشار إلى قضبان السكة الحديد الواقعة أسفل البلكونة، وقال بحنقٍ كأنه يتحدث عن عدو قديم: «لم يقض على زواجنا إلا هذا القطار اللعين»، وأطلق زفرة قوية اهتز لها كوب الشاي بيده، قبل أن يستحيل حنقُه إلى أسى نطقت به كل حروفه: « أو ربما هي التي اتخذت القطار حجة لكي تخرب هذا البيت، هي اللعينة لا القطار، كأنها لم تر هذه القضبان حين فرحت بالشقة، كأنها لم تعتبر قرب محطة القطار من المنزل ميزة تستحق أن تحكي عنها لكل الأقارب والأحباب، كأنها لم تسمع صوته كلما مر بالجوار طيلة خمسة أعوام مما كنت أظنه سعادة ستدوم، كأن كل الأزواج الذين استمروا في السكن هنا صُمٌ أو حمقى». صمت قليلا، ربما ليختبر صحة ما سيقوله لاحقا: «كأنها لم تكن تشعر بالقطار أبداً حين تكون لاهثة في لذة الجماع، كأن ابنتينا الآن أسعد حظاً بالحياة بعيدا عن أبيهما، في شقة لا

يمر بجوارها قطار»، وحين انهمر في نشيج حاد، ارتبكت ولم أدر ما يمكن أن أفعله لأخفف عنه، وتمنيت أن يطول صخب القطار الذي عاود المرور، على الأقل حتى يتوقف عن البكاء.

زهرة الربيع

منظر الزهرة البيضاء التي نبتت بمفردها في أعلى غصن، يتربع قمة الأغصان العارية التي تشكل جسد الشجرة العملاقة، كان يستحق ترديد عبارة «سبحان الله» لأكثر من مرة، وضعت يدي على عينيّ لكي أتّقي ضوء الشمس، فأتمكن من النظر بإمعان إلى ذلك المشهد المهيب، وأنا ألوم نفسي لأني لا أقرأ عن النبات كما ينبغي، فلا أنا أعرف إسم هذه الشجرة، ولا كيف تفارق فصل الشتاء إلى فصل الربيع بهذا الشكل الفريد، بحيث تنبت في أعلاها زهرة بيضاء وحيدة، ستلحقها حتماً وعن قريب زهرات بيضاء أخرى، وحين تذكرت أننا أخذنا في المدرسة زمان، أن الأزهار تظهر بعد الأوراق، قررت أن أنتظر انكسار الشمس، لأصور هذه الظاهرة الكونية التي قد تكون فريدة من نوعها، وقد تكون مجرد كيس بلاستيكي أبيض استقر به الحال معلقا في أعلى غصن للشجرة، كما اتضح لي فور انكسار الشمس.

شكل آخر للحنان

ذهبت يومها مع خالي إلى المستشفى، لنزور أعز أصدقائه، الذي كان يمتلك محل خردوات قريباً من بيتنا. كان اسمه سيد، وكنت أحبه لأسباب كثيرة من بينها ضحكته المميزة، المذيلة بشخرة سكندرية متفردة عما سواها وعصية على التقليد، كما أدركت بعد ذلك.

بعد التحيات والسلامات، قال خالي للعم سيد الممدد أمامنا على فراش المرض: «هو انت بميتين أمك يا سيد هتشحططنا كل يوم وراك في المستشفيات؟ ده إيه القرف ده يا أخي»، وسيد نظر له بإرهاق، وهز رأسه هزة خفيفة، دون أن يتكلم، مكتفياً بنظرة سريعة إلي، قبل أن يحدق ثانية في فضاء الغرفة، كان واضحاً أن صحته لم تكن تحتمل حتى إصدار شخرة خفيفة، كأبسط أشكال الرد المتاحة على ما قاله خالي، للحظات ساد الغرفة صمت، قطعه خالي حين قال بود شديد: «تحب أنزل أجيب لك حاجة من تحت يا سيد.. ناقصك أيّتُها حاجة.. ما تتكسفش يا أخي احنا اخوات وأن عينيّا ليك»، وسيد هزّ رأسه نافياً، وقد اغرورقت عيناه بالدموع وبدا عليه التأثر الشديد، لتسود لحظة صمت أخرى، حين طالت أكثر مما ينبغي، قطعها خالي قائلاً بحماس: «بس وحياة أمك لو عييت تاني مانا معتب لك مستشفى يا سي

خرا»، وقد كانت تلك أول مرة أتعرف فيها على معنى النظرة المركّبة للحياة.

المسألة بسيطة

كان يجلس في الجهة المقابلة لنا في السيرك، ملامحه شديدة التجهم لفتت انتباهي إليه، واستمرارها كما هي برغم تنوع فقرات العرض شغل بالي بشدة، فأخذت ألقي عليه النظر من حين لآخر، لأجده كما رأيته أول مرة، يجلس متابعا مختلف الفقرات بتجهم شديد، إلى جواره يجلس طفلان كان يبدو أنه جدهما، وعلى يمينهما تجلس سيدة في نفس عمره، لم تكن فيما بدا لي مشغولة به، بقدر انشغالها بالنظر بسعادة بالغة، إلى الطفلين الذين لا يكفان عن الضحك والتصفيق، تماماً كأبنائي وسائر الأطفال الحاضرين للعرض، تحولت متابعته إلى تسلية بديلة لي، خصوصاً حين كنت أهرب بنظري من بعض فقرات العرض التي تثير توتري، أخذت أتخيل قصصاً تُفسّر تجهمه في محفل مبهج كهذا، وبالطبع كانت كلها قصصاً مأساوية تفترض ابتلاءه بكرب عظيم، من عينة أن ابنه مات هو وزوجته في حادث طائرة، فترك لأبويه طفليه لتربيتهما، ولذلك ذكّره ضحك الطفلين بنجله الراحل، ولعله يعاني الآن من محاولة منع دموعه من الانهمار حزناً على فلذة كبده، لكن كل قصصي المفسرة تلاشت، بمجرد أن بدأت فقرة البلياتشو، التي حولت ذلك الجد المتجهم، إلى طفل صاخب الضحك، ينظر إليه حفيداه باستغراب، وهو

ينشال وينحط في مقعده من فرط الضحك، لأن الموضوع في رأيهما لطيف، لكنه لا يستحق الضحك إلى هذه الدرجة.

تحت سطح الوَقار

خُلوُّ فرع الصيدلية الكبيرة من الرواد، أغرى عمالها بالتباسط الشديد مع بعضهم، قال عامل الكاشير أفريقي الأصل ساخراً من عامل النظافة الآسيوي الأصل، بعد أن رآه يقف جوار الكاشير الآخر: «بلاش سرقة زي كل مرة، المكان متراقب بالكاميرات ولو هتشتري حاجة ادفع تمنها»، ليرد عليه العامل الآسيوي الأصل متحديا: «عايز اشتري كوندوم عشان لما نقضي ليلتنا سوا تبقى متطمن»، والعامل أفريقي الأصل رد على الطاير: «وده هتلبسه في بُقّك أكيد»، فانبعثت مني ضحكة مدوية، زادت في إحراج العامل آسيوي الأصل، وفي حين حيّاني العامل أفريقي الأصل بضحكة عريضة، كان العامل آسيوي الأصل على وشك أن يرد، لأمني نفسي بمباراة حامية الوطيس بين ذوقين مختلفين في «الأباحة»، التي وحّدت مزاجنا في تلك اللحظة، لكن رجلاً عجوزاً وامرأته دخلا إلى الصيدلية، ودخلت بعدهما بلحظات أم وثلاثة بنات صغيرات، ليعاود المكان من جديد جو الوقار الشديد، الذي كنت وحدي أعرف أنه زائف.

رجل الكابينة

كان يتحدث في الموبايل بتلقائية شديدة، كأنه يجلس مرتاحاً على كنبة بيته، وليس على ناصية ذلك الشارع التعيس، حيث وقف مستنداً إلى كابينة التليفون، التي أناخ عليها الدهر منذ أن فصلوا عنها الخط قبل سنين، بدا أنه لا يبالي إطلاقا، إن أسمع صوته الجهير المارة من حوله وهو يقول بأداء مثير للدهشة: «بقى أنا ما باغيرش عليكي يا روح قلبي.. إخص عليكي.. تصدقي جرحتيني.. ده أنا باغير عليكي من الهوا الطاير.. من كوباية المية اللي بتشربي منها.. من ملاية سريرك.. من كيس مخدتك.. من معالقك وشوكك.. من كرسي السفرة اللي بتقعدي عليه.. من ملازمك وكشاكيلك واقلامك وغطيانها».

كان لا بد مع تشكيلة عجائبية كهذه من أسباب الغيرة، أن أتلكأ في مشيي، متصنعاً الحديث في الموبايل، لأعرف أصل القصة وفصلها. حين تأملته من بعيد لبعيد، وجدت هندامه مقبولاً، وشكله خالياً من أمارات اللسعان، ولم يظهر لي أنه راغب في الاستعراض ولفت الإنتباه، بالعكس كان متوحداً تماماً مع ما يقوله لمحبوبته، وهو يعدد كل ما يخطر على بالك من أشياء قريبة منها أو لصيقة بها، وقبل أن يعرج على الأشياء الأكثر حميمية، علا صوته فجأة أكثر قائلا: «يعني

عايزاني أعمل إيه يعني عشان أثبت لك غيرتي.. أتخانق مع طوب الأرض واحنا ماشيين في الشارع.. تتهان كرامتي كل يوم عشان تنبسطي»، قبل أن يضيف بعصبية شديدة: «طيب خلاص خلاص.. استني معايا من فضلك عشان جالي تليفون تاني.. يعني إيه مش سامعاه بيرن.. باقولك ثواني هارد على تليفون المكتب وأكلمك»، وفجأة أبعد الموبايل عن أذنه، ومد يده لترفع سماعة الكابينة المهجورة الموحلة، وبدأ يخاطب الفراغ بجدية شديدة: «أيوه يا محمد بيه.. يارب تكون انت والأسرة بخير.. طيب ممكن أطلبك على الأرضي بعد شوية.. أصل المدام معايا على الخط التاني»، ثم رزع سماعة الكابينة بشدة عدة مرات، وعاد لوضع الموبايل على أذنه قائلا: «أيوه يا روحي معلهش اتأخرت عليكي».

لقاء في الصالة

وأنا ذاهب إلى الحمام منذ قليل لأفك زنقة عاجلة، قابلني ملاك خارج من الحمام، ومع أنني لم أكن قد تشرفت برؤية ملاك من قبل، لكني لا أدري كيف عرفت فور رؤيتي لذلك الخارج من الحمام أنه ملاك، لأنه كان ببساطة يشبه الملائكة كما يظهرون دائماً في أفلام الكرتون: جناحان أبيضان لا يرفرفان وهالة نورانية ووجه شاحب وفانلّة ناصعة البياض، الشيئ المختلف في مظهره أنه كان يمسك فوطتي «النبيتي» بيده، ويمسح بها منطقة عارية وحساسة في النصف الأسفل من جسده، بدا غريباً لي أن تلك المنطقة بدت متغيرة المعالم، بحيث تتشكل كل ثانية متخذة شكلاً مختلفاً، والملاك لاحظ أنني منشغل في إمعان النظر إلى منطقته الحساسة، أكثر من اندهاشي من وجوده أو من قدرتي على رؤيته، فقال لي ربما بهدف «الغلوشة» على الصدفة التي جعلتني أراه: شوف يا سيدي، نحن الآن في الهزيع الأخير من ليل الجمعة، وقد جئت إليك مكلفاً، بأن ألبي لك أي أمنية تطلبها.

قلت له وأنا أمسك «الميّة» بصعوبة: مع احترامي لملائكيتك، لن تستطيع تلبية أمنيتي أبداً، قال لي: هل أنت مجنون؟، يمكن لي الآن أن أريك بعضاً من قدراتي،

وستندهش منها لدرجة أنك ستعملها على روحك، لكني لا أريد أن أضيع وقتك في تنظيف الصالة، فتضيع بذلك فرصتك في تحقيق الأمنية. قلت له دون طول تفكير: طيب، أمنيتي أن أخرج من الحمام بعد قليل، فأجد عزيزة جلال واقفة في قلب الصالة، وهي بنفس ملامحها المختلفة التي كانت عليها عام ١٩٨٨ وما حوله، ليس لي طلبات معينة فيما ترتديه أو لا ترتديه،سوى أن تكون مرتدية نظارتها الشهيرة، وأريد حين أعود أن أجدها تغني «إيه ده يا حبيبي إيه ده ياحبيبي»، شريطة أن تغنيها بشكل ملغز ومفعم بالإيحاءات، بحيث لا يتبين لي من أول وهلة، هل ما تغنيه تساؤل حائر كما ورد في نص الأغنية الأصلي، أم أمر صريح لي بأن أهدأ وأستهدى بالله، قلت له ذلك ودخلت إلى الحمام مسرعاً، وعندما خرجت كان ثمة نار صغيرة في طريقها للإنطفاء في ذات المكان الذي كان يقف فيه الملاك، فيما كان كائن قبيح أحمر الوجه بقرنين نابتين في رأسه، يجلس على الكنبة منجعصاً، ممسكاً بريموت التلفزيون المطفأ، وينظر إلى النار الموقدة بسعادة بالغة، ليختفي فجأة بعد أن قال لي ضاحكاً: «برافو عليك حرقت دمّه الهجّاص ده».

كارما الزبادي

طبعاً لن تصدق لو قلت لك إنني مدين بكل ما أنا فيه من ثراء وعز وأبّهة، لعلبة زبادي صغيرة الحجم. شوف يا سيدي، كان ذلك قبل خمسة سنوات، كنت ليلتها قد ذهبت متأخراً إلى السوبر ماركت، حين وقفت أمام ثلاجة منتجات الألبان، كنت أشعر بمزيج من الضجر والكسل والتعب، مما جعلني أمد يدي لآخذ بضعة علب زبادي بيد واحدة، وللأسف سقطت إحدى العلب من يدي، واندلق ما فيها على الأرض، نظرت حولي فلم أجد أحداً، فقمت بدفع العلبة التالفة بقدمي أسفل الثلاجة، وأخذت علبة بديلة، وأكملت جولتي، وحين توجهت للدفع، فكرت أن أطلب من عامل الكاشير محاسبتي على علبة الزبادي، لكني لم أفعل، فكرت أن الأمر لا يستحق، وحين عدت إلى البيت، بدأت في رص مشترياتي في الثلاجة، سقطت على الأرض علبة زبادي، ولوثت أرض المطبخ.

ذهبت إلى الحمام، وأنا عازم بعد الخروج منه على غسل أرضية المطبخ، وأنا بداخل الحمام أعزك الله، سمعت صوت ارتطام قوي، أعقبه صوت صراخ زوجتي وتأوهها، خرجت مسرعاً، فتكعبلت في طرف دواسة الحمام، فانفتحت رأسي، وحين واصلت طريقي إلى المطبخ، رأيت زوجتي ملقاة على

أرضية المطبخ، بعد أن زحلقها الزبادي اللعين، للأسف المسألة قلبت بغم شديد، يعني، تكلفة علاج زوجتي من كسر الحوض، وعلاجي من فتح الدماغ، كان يمكن أن تشتري حمولة شاحنة زبادي، صدقني كنت قبل ذلك أستهين بكل من يحدثني عن الكارما أو العقاب العاجل، لكن بعد أن حدث ما حدث، بدأت أقرأ في موضوع الكارما كثيرا، وعنها يا سيدي، ندهتني نداهة التنمية الذاتية، لأصبح متبحراً فيها، وأكتب عن شؤونها في المواقع الإلكترونية بانتظام، ونجاح تدويناتي شجعني على إنشاء صفحة متخصصة عن التنمية الذاتية على (الفيس بوك)، ونجاحها الساحق بدوره جعلني بعد فترة وجيزة، محاضراً ناجحاً يتهافت اليائسون والمحبطون على الاستماع إليه، مما جلب لي فيما بعد فرصة عمل برنامج عن التنمية الذاتية، كسّر الدنيا كما تعلم، وها أنا أجلس معك لتسألني عن رحلة نجاحي، ولأنك طلبت مني أن أكون صادقاً في كل ما أقول، فقد قررت أخيراً أن أقر وأعترف بفضل علبة الزبادي.

مطلب بسيط

سحرتني ضحكاتها له، وذهبت بي بعيدا، بعيدا جدا، وعندما استعدت ذاتي، قررت أن أذهب إلى حيث كانا يجلسان في ركن الكافيه، لأقول له بعد مساء الخير: لا أريد منكما شيئا، وأتمنى لكما الخير، فقط هل يمكنني أن أجلس في مقعدك للحظة، وأطلب منها أن تضحك لي تلك الضحكة الفاتنة التي كانت تضحكها لك، لا أريد أن أضايقكما والله، أريد فقط أن أتذكر ضحكة من أحب، فضحكتها الفاتنة تشبهها، هذا كل ما في الأمر. وعندما اقتربت من ترابيزتهما، كنت أفكر أن المشكلة ليست فيها هي، المشكلة فيه هو، وفي تفهمه لمطلبي البسيط. بعد قليل، وعندما عدت لأستقر على ترابيزتي، بشعر منكوش وهالة سوداء حول عيني وكرامة مبعثرة في أرجاء المكان، كنت لا أزال مبتسماً ابتسامة نابعة من القلب، لأنني لم أستطع أن أنسى أنها عندما كانت تراقب فتاها وهو يضربني، كانت تضحك تلك الضحكة.

على مر الزمان

كان قد تورّط في مطلع العام الدراسي، ووعد ابنه بأن يشتري له كاميرا لو حقق درجات مشرفة في نهاية العام، والولد لم يكذب خبراً، ورفع رأس الأب عالياً، لذلك حقّ شراء الكاميرا على الأب، الذي حاول الاستذكاء واستدراج الإبن للإقتناع بموديل سعره مريح، لكنه بعد دقيقتين من بدء المناقشة، أدرك حتمية فشل مسعاه، فالولد الذي لم يتعد الثانية عشر من عمره، كان قد استعان بالإنترنت، وأعد دراسة مقارنة بين الكاميرات المخصصة للمبتدئين، أخذ الأب يستمع إلى ابنه ويهز رأسه متصنعاً الإهتمام بالتفاصيل، في حين كانت تجلس إلى جواره ابنته ذات الثامنة، منهمكة في إنجاز مشروع مدرسي عن الآثار الرومانية في إيطاليا، وهي تستخدم (مُترجم جوجل) على اللاب توب، في ذات الوقت الذي تشاهد فيه فيديو عن الكولسيوم على الموبايل من أجل تسريع الإنجاز، والأب في وسط كل ذلك تذكر نفسه حين كان في سن أبنائه، وأمه تصرخ فيه بصوتها الحاسم الحازم، الذي لا يظهر إلا في الملمّات: «الآلة الحاسبة دي مش بتاعتك لوحدك، إحنا جايبينها ليك ولإخواتك، ومن حق البيت كله يستعملها».

في سياق آخر

قال لي إنه أصلاً يعمل مطرباً في الأوبرا، ثم استدرك أنه ليس مطرباً منفرداً، بل واحد من الكورال الذي اشترك في غناء أوبرا عايدة أكثر من مرة، وأنه سيحال على المعاش في العام القادم، ودون أن أسأل، قال لي بحرقة إنه يعمل على التاكسي، ليس لأنه مضطر مادياً كما يتصور الجميع، بل لأنه يحب اللف في الشوارع جداً، كما أنه من حين لآخر يتدرب على الزبائن كسميعة، وبدون سابق إنذار، اندفع في وصلة غناء أوبرالي، أدهشتني وأكدت لي صدق موهبته، فتحولت من وضع الطناش إلى وضع الإهتمام، وحين تنبهت إلى اقتراب مقصدي، بدأت أفكر في مخاطرة الذهاب إلى مشوار أبعد، لأجد فرصة لطرح كل ما لدي من أسئلة، فقرر أن يدهشني أكثر، بأن يوقف الغناءالأوبرالي، ليرفع عقيرته بغناء توشيح «حبيبي يا رسول الله»، كاشفاً عن مساحات أجمل من صوته الذي بدا أوضح وأجمل. وحين وقف التاكسي في زحام المرور، إلى جوار بقعة من كورنيش النيل، كانت قد وقفت على سور الكورنيش فتاة عارمة المؤخرة، متخذة وضعية الإستعداد العابث لصورة يلتقطها صديقها، الذي بدا مفتوناً بها إلى حد الإنسحاق، ليقطع السائق الأوبرالي غناء التوشيح فجأة، ويقول بجدية شديدة: «البنت دي ما

تتصورش يا برنس، دي تتشال وتتلفح على السرير على طول»، قبل أن يعود لاستئناف «يا حبيبي يا رسول الله» من طبقة عالية.

بعض الظن إثم

ابتهجتُ حين رأيتُ الصورة العارية التي قرر أن يشركنا فيها في تصرف «فيسبوكي» كان جديداً عليه، هو الذي لا يكف عن تذكيرنا بدموية الماضي المشين وخراب الواقع المحيط وسواد المستقبل القادم، واصلتُ تصفح «التايم لاين»، وقد نويت أن أرسل إليه مهنئا على تلك الاستفاقة المتأخرة من وهم تغيير الواقع، لكنه أجهز على أملي فيه بعد لحظات، حين كتب بوستاً جديداً يحذرنا فيه من فتح الرابط المرفق بالبوست السابق، ويعتذر لكل من أصابهم فتح الرابط بفيروس إلكتروني، يستحقونه عن جدارة، لأنهم تصوروا أنه يمكن أن ينشغل ولو لمرة بمباهج الحياة الدنيا.

في مديح الوضوح

بدت لي نظرتها المسترسلة، محمّلة بأبعاد لا تتناسب مع الموقف والمكان والزحام وروائح العرق والغازات التي تملأ فضاء مكتب الشهر العقاري الخانق، قالت لي وهي تتفحصني بشكل مربك: «يعني إنت مخرج من بتوع السيما»، قلت لها: «يعني مش بالضبط، أنا مخرج إعلانات». أربكني أكثر ارتفاع منسوب الشبق في نظراتها، وهي تقول «عشان كده الرخصة بتاعتك شقية أوي، إنت عارف أنا كان زمان نفسي أمثل»، وسرعة البديهة التي يحسدني أصدقائي عليها لم تسعفني هذه المرة، فلم أجد ردا سوى أن أقول: «خلاص نشوف منتج وأعمل لك فيلم»، والضحكة الرقيعة التي أخرجتها كانت تنذر بانزلاق الحوار نحو المزيد من الإسفاف، لولا شخرة صارمة انبعثت من المكتب المجاور، أعقبها قول زميلها الأكبر سنا ودرجة وظيفية: «ما تحترمي سنك يا ولية انتي.. يا أستاذ كل الحيحان ده عشان تاخد منك عشرين جنيه.. اديها له دلوقتي وارحم دين أبونا»، وأنا لم أحب الوضوح مثلما أحببته وقتها.

ألفاظ ومعانٍ

ربما كان ذلك أغرب ما سمعته من أسباب للطلاق على الإطلاق: كانت زوجة الوزير متعودة على تحضير الجلابية له لكي يرتديها كل مساء، كان يريحه النوم فيها كثيرا، منذ تعود على ذلك وهو صغير، لكن زوجته لم تكن تدرك أن عبارة (مش هتلبس الجلابية يا حبيبي)، ستغضبه إلى حد يدفعه لرمي يمين الطلاق عليها، لمجرد أنها قالت له ذلك ليلة خروجه من الوزارة، وحين نبهه أولاد الحلال إلى أن الخلفية الإجتماعية التي جاءت منها، قد لا تستخدم فيها عبارة كهذه للسخرية، كان وقت إصلاح الشرخ قد فات، ليخسر الرجل حقيبته الوزارية وزوجته في ٢٤ ساعة.

والموت واحد

ارتفاع أسعار السجائر ذكّرني بوالد صديق العمر مصطفى، الذي كان من أوائل الذين خرجوا في هوجة المعاش المبكر قبل عشرين عاما، يومها وفي لحظة عاطفية مشحونة، وضع الأب مكافأة نهاية الخدمة على ترابيزة السفرة التي جمع حولها زوجته وأبناءه، وقال بحرقة: «الفلوس أهيه.. اعملوا بيها حاجة مفيدة»، ومصطفى سأله من باب التحبب والمساندة: «انت يا حاج لو خدتهم عشان تعمل مشروع هتعمل بيهم إيه؟»، وأبوه أجاب سريعا كأنه تذكر حلما لازمه طويلا «أفتح بيهم كشك سجاير وأفضل أشرب فيها لحد ما أموت»، وأبو مصطفى مات من القهر بعدها بسنة، لأن أولاده بعزقوا فلوس المكافأة، دون أن يصنعوا بها شيئاً مفيداً، ولعله لو عاش حتى الآن لمات من القهر بوتيرة أسرع، لأن مكافأة نهاية خدمته، لم تكن ستملأ أربعة رفوف في كشك سجاير.

أسماء سمّيتموها

برغم إلحاحه، لم يكن ممكناً أن أخبره بسر الابتسامة الخبيثة، التي رآها ترتسم على وجهي لأكثر من مرة خلال لقاءاتنا الأولى، والتي كان سببها أقوى من محاولات كتمها، ليكون تكرارها سبباً غير معلن في بَوَخان علاقتنا، لأنه أحس أنني لا آخذ ما يقوله بجدية، أو لأنه ارتاب في تجاهلي أسئلته المتكررة لي عن سر ابتساماتي، والتي لم يكن سيسعده أن يعرف أن وراءها علاقة قديمة، ربطتني باسمه الشعبي الذي لم يعد مألوفاً، اسمه الذي كان شريكي في قصة حميمة ولّت ولم تترك سوى ذكريات جميلة تدير الرأس، وتثير الحنين إلى صاحبتها التي كانت شديدة المحافظة والتهذيب، حتى في أشد اللحظات حميمية وجنوناً، ولذلك أجبرتني على أن نعيد تسمية كل شيء يرتبط بتلك اللحظات، ليسهل عليها التفاعل معها أكثر، وكان من حظه أن أطلقت اسمه النادر على أعز أعضائي، وربما لولا ذلك لأصبح هو من أعز أصدقائي.

ملابسات مختلفة

لم أنجح في منع نفسي من النظر إلى وجه الآسيوية الجميلة النائمة في الكرسي المواجه لي في القطار، على الفور تذكرت رواية (الجميلات النائمات) للأديب الياباني ياسوناري كاواباتا، ثم بعدها بقليل تذكرت كيف تأثر الأديب الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز برواية كاواباتا، وقرر بعد مرور عدد من السنين أن يعارضها على طريقته الخاصة بروايته (ذكرى غانياتي الحزانى)، وقلت لنفسي: من يدري ربما تصحو الجميلة النائمة قبل أن نصل إلى بوسطن بكثير؟ فتسألني عن الوقت، أو أين أصبحنا بالضبط، لأنتهز الفرصة وأفتح معها حديثاً عن حياتها، قد يقودني إلى معارضة روائية أو حتى قصصية لكل من كاواباتا وماركيز، لكن الفكرة ماتت على الفور، بعد أن تدفقت غازات كريهة من طرف الجميلة النائمة، التي كانت تعاني على ما يبدو من انتفاخ مبين، فلم أعد أفكر في شيئ يخصها، سوى البحث عن كرسي متاح بعيداً عنها.

قتل الأب

كان ينظر في عينَي كل من عزّاه في وفاة أبيه، إلا أنا، تحاشى النظر في عينيّ تماماً. تأكدت من ذلك والله، وأنا أراقب أداءه مع القادمين لتعزيته، والذين لم يكن أغلبهم مثلي وثيقي الصلة به، أو قديمي العهد بصداقته، لكنني لم أجد ذلك غريباً على أية حال، فلم يكن بالتأكيد قد قال لهؤلاء ما اعترف به لي في لحظات صفاء، عن أنه أحياناً يخشى أن يموت قبل أبيه، فلا يتمكن من كتابة قصتهما الغريبة والمعقدة في رواية ملحمية، كان يقسم أنها ستكون أفضل من كل ما نكتبه بل ومن كل ما كتب عن علاقات الأباء بأبنائهم. كانت قصته مع أبيه فريدة من نوعها بالفعل، لكنني كنت متأكداً أنه سيفشل في كتابتها على الوجه الأمثل، بسبب تورطه العاطفي فيها أكثر من اللازم، ولأنه بحكم تكوينه لن يكون قادراً على أخذ مسافة مما جرى له على يد أبيه قبل أن يحكي، ولذلك لن يكون هناك لرواية قصتهما أصلح مني، لكن ذلك لن يحدث للأسف، إلا إذا مات هو قبلي.

سواحل

قال لنا مشرف الرحلة المتحمس، إن من لم يجرب نزول البحر في الليل، لا يصح له أن يدعي أنه قد عام في البحر من قبل. ولأن أغلبنا لم يكن له أن نزل البحر إلا في النهار، فقد تطوع الأستاذ المعروف لدينا بخفة الظل والأفكار غير التقليدية للإفتاء بأن العوم في النهار أخطر من العوم بالليل، لأن حركة الأمواج تكون أهدأ بالليل، فيصبح البحر رائقاً وممتعاً أكثر، لم يعارضه أحد منا لأن البحر كان وقتها هادئاً بشكل لم أعهده من قبل في بحر مدينتي، كان الأستاذ قد حدثنا في الطريق عن الفرق بين بحرنا الأبيض المتوسط، وهذا البحر الذي أسموه الأحمر، نسبة إلى شعابه المرجانية الحمراء، التي يأتي السياح من آخر بلاد الدنيا لرؤيتها، والتي سنذهب في النهار التالي لزيارة أفضل الأماكن التي تتيح رؤيتها.

لم أحتج إلى كثير من الوقت بعد نزول الماء، لأدرك أن هذا البحر الهادئ مخيف أكثر مما تصورت، كان المشرف قد نبّه علينا مراراً وتكراراً أن نظل متقاربين من بعضنا، بحيث يكفي أن يمد أحدنا يده ليمسك بزميله فوراً، وحين سأله أحدنا عن سبب تشديده على ذلك بينما البحر هادئ ورائق، قال بجدية إنه لا يخاف من البحر، بل من أسماك القرش التي تنشط أكثر

في الليل، وقبل أن يندفع أغلبنا للخروج من البحر مذعورين، جلجلت ضحكته وأقسم أنه كان يمزح ليختبر شجاعتنا، لنهجم عليه محاولين إغراقه، ويسود ضحك صاخب سرعان ما انطفأ حين اكتشفنا اختفاء محمود، الذي لم نفهم سريعاً، برغم أننا لم نكن أطفالاً، معنى واضحاً لعبارة «سَحَبُه البحر»، تلك العبارة التي لم تقنع أهله بعدم جدوى مقاضاة المدرسة، ولم تمنع المدرسة من فصل المشرف، لكنها كانت كافية لكي لا ينزل أحدنا مجدداً وأبداً إلى البحر، أي بحر.

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ٢٠٢٠ عن دار المشرق

تصميم الغلاف: محمد الهجرسي وأحمد عبد المحسن، عن لوحة للفنان سلفادور دالي